د. عمر بن عيسى



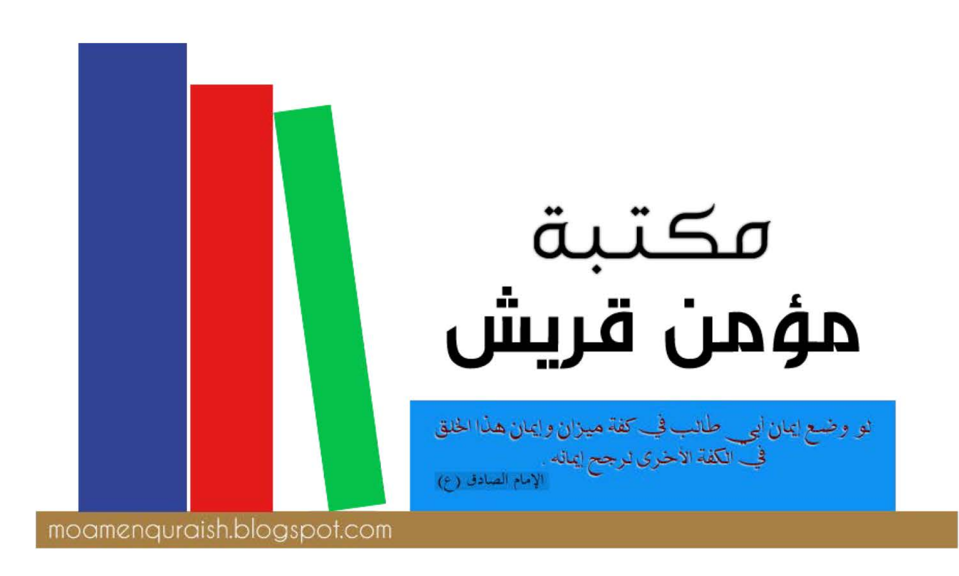
# مالك بن نبي

## في تاريخ الفكر الإسلامي
## وفي مستقبل المجتمع الإسلامي




آفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم




# مالك بن نبي

## في تاريخ الفكر الإسلامي

## وفي مستقبل المجتمع الإسلامي

مترجم عن الفرنسية

مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي/ عمر بن عيسى؛ إشراف وتقـــدم عمر كامل مسقاوي .- دمشـــــق: دار الفكـــر، ٢٠٠٧.- ٩٦ص؛ ٢٥ سم.

ردمك 1-59239-709-3

١-٢١٨,٧٩ ب ن ع م ٢- العنوان ٣- مسقاوي

مكتبة الأسد

الدكتور عمر بن عيسى

# مالك بن نبي

## في تاريخ الفكر الإسلامي
## وفي مستقبل المجتمع الإسلامي

إشراف وتقديم

عمر كامل مسقاوي




آفاق معرفة متجددة




دار الفكر - دمشق — برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

---

**مالك بن نبي**

في تاريخ الفكر الإسلامي

وفي مستقبل المجتمع الإسلامي

د. عمر بن عيسى

إشراف: المحامي عمر كامل مسقاوي

الرقم الاصطلاحي: ٢٠٤٧,٠١١

الرقم الدولي: ISBN:1-59239-709-3

التصنيف الموضوعي: ٢١٠/٩٢٠ (دراسات إسلامية/التراجم والسير)

٩٦ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م

ط١/٢٠٠٧م

# المحتوى

# المقدمة

دراستان قدمهما الدكتور عمر بن عيسى وهو من المثقفين الجزائريين الذين تتلمذوا على مفكرنا مالك بن نبي منذ منتصف الستينات من القرن الماضي. والدكتور عمر بن عيسى هو شقيق الدكتور رشيد بن عيسى الذي تعرف على الأستاذ مالك بن نبي منذ عودته إلى الجزائر.

وقد كان الدكتور رشيد من الأوائل الذين عرفوا لفكر مالك بن نبي قيمته في توصيف واقع القابلية للاستعمار كمصطلح وضعه مالك بن نبي لتحديد شروط الإقلاع من جديد لبناء حضارة إنسانية يستعيد بها التاريخ الإنساني دوره في سلام الكرة الأرضية.

من خلال هذا المدخل ولجت الناشئة الجزائرية طلاب الجامعة في الجزائر إلى فكر بن نبي، وكان هنالك فريق من الطلاب شباناً وشابات يجدون ضوءاً في نهايات العقد السادس من القرن العشرين يشع من شقة في منزل يقع في شارع فرنكلين روزفلت رقم ٥٠ في مدينة الجزائر؛ حين افتقد الجيل ضوابط المسار الاستقلالي وأمنيات الثورة، وما حملت من فوضى الشعارات وتصارع المصالح.

كانت ندوة بن نبي هي الضوء الذي جلب إليه جيلَ الشباب كما هو شأنه حين انتقل إلى القاهرة عام ١٩٥٦ وتتلمذنا عليه.

والدكتور عمر بن عيسى من تلاميذ الأستاذ مالك بن نبي؛ وقد عمل بقدر ما سنحت له الظروف مع صديقه الأستاذ عبد الرحمن بن عمارة ثم الأستاذ نورالدين بوقروح الذي أصبح وزيراً فيما بعد.

هؤلاء الثلاثة عملوا على لملمة تراث بن نبي باللغة الفرنسية، وما خلفه بين أيدي الطلاب تلاميذه في تلك المرحلة.

وقد اتصل من عمل هؤلاء الشباب أول ما اتصل ما أصدروه من مجموعة محاضرات بن نبي تحت عنوان Les grands thèmes فأعادوا إصدار المحاضرات الأولى من المجموعة: الحضارة، الثقافة، الإيديولوجية، التي كان بن نبي قد أصدرها تحت عنوان آفاق جزائرية مضافاً إليها محاضرتي الديمقراطية في الإسلام، وأعمال المستشرقين. وقد أعطوا هذه المجموعة عنوان (القضايا الكبرى) وقد ذكرتُ في مقدمة الطبعة العربية لهذه المجموعة أن هذا العنوان هو أكثر اتفاقاً مع توجهات بن نبي، لأنها تشتمل على وحدة المنهج؛ وذلك ما طرح بنية سلوكية تتصل بأصول الحضارة الإسلامية ومكوناتها الاجتماعية.

فقد استقبلتنا في بداية الثمانينات بكل إعجاب نضوج فكر بن نبي في مدارك الشباب الجزائري المثقف؛ وذلك مؤشر لا بد من دفعه إلى المدى الذي يؤهل فكر بن نبي ليكون منطلق الفكر والرؤية في جيل الشباب الذي لا يزال في فوضى الاتجاه، وضبابية الرؤى، وابتسار الحلول. (راجع مقدمتنا لكتاب «القضايا الكبرى»).

إن البحثين اللذين نقدمهما قد جردناهما من سياق ما كان قد كتبه الباحث في أعقاب مجموعة لمقالات بن نبي كان قد جمعها الأستاذ عبد الرحمن بن عمارة في كتابين: الأول تحت عنوان (القابلية للاستعمار) فكان البحث الأول «مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي» هو التعقيب على المجموعة تحت عنوان «القابلية للاستعمار». أما البحث التالي «مالك

بن نبي ومستقبل المجتمع الإسلامي» فهو التعقيب على المجموعة الثانية تحت عنوان (العالمية - Mondialisme).

وهكذا صدر كل عنوان في كتاب مستقل وضع له جامعهما الأستاذ عبدالرحمن بن عمارة مقدمة تفسر ترابط كل مجموعة مع العنوان الذي وضعه.

**القابلية للاستعمار Colonisabilité**

يقول الأستاذ عبد الرحمن بن عمارة في مقدمة المجموعة البنَّابية التي وضعها تحت هذا العنوان:

«إن بن نبي أوضح لنا بأن الاستعمار أو الإمبريالية يظلان كلاهما عاجزين إذا لم نساعدهما عبر القابلية للاستعمار؛ إذ يتضامن هذا العامل مع الشروط التي تمسك بذلك الضعف والتخلف الذي توالى منذ ما بعد الموحدين ولعدة قرون؛ فكيف لنا أن نأمل بالخروج من هذا التخلف إذا لم نشخص المرض بكل شفافية ودون مجاملة.

لذا فقد عمدنا في مجموعة هذه المقالات تحت عنوان (القابلية للاستعمار) إلى بحث مختلف وجوه المرض عبر كتابات بن نبي التي لخصت المأساة الإنسانية».

**العالمية Mondialisme**

لقد أكد الأستاذ بن عمارة في مجموعته الثانية تحت هذا العنوان على أهمية نتائج الخروج من مأساة القابلية للاستعمار؛ لذا فهو يستخرج من مجموعة المقالات الأسس التي ركزت عليها فكرة بن نبي في إعادة صياغة اطّراد العوامل الداخلية والعوامل الخارجية التي وضعت المسلمين خارج التاريخ.

لذا علينا أن نعالج مشكلة القابلية للاستعمار عبر تشخيصها بما يحررنا من قيودها حتى لا يصبح المجتمع الإسلامي صيداً ثميناً للصراع الفكري الذي يقوده الاستعمار.

فبن نبي في جميع أعماله أراد دائماً أن يحدد طريقاً ضيقاً للخروج من أزمة القابلية للاستعمار، وكم هو صعب ذلك الطريق الذي يمكِّن المسلم من أن يستعيد رسالته ليصبح أحد الأركان الرئيسة لبناء العالموية Mondialisme؛ إذ المسلم لا مكان له في العالم إذا لم يكن سعيه مستمداً من الشروط القرآنية التي هي لصالح النوع الإنساني.

ذلك أن مشكلة المشكلات هو أن نرتقي إلى مستوى من شروط التوتر الاجتماعي الذي يحرر الطاقة الفردية، ويمنحها كل فاعلية الترابط المتضامن مع حركة المجتمع.

فالأستاذ بن عمارة؛ إذ وضع لمقالات ومداخلات بن نبي جميعها هذين العنوانين؛ فقد اختصر في الواقع أساس مشروع بن نبي الذي انطلق من مرحلة (ما بعد الموحدين) حين تخلفت الحضارة الإسلامية عن دورها، وأوسعت للحضارة الغربية المسيحية مسارها التاريخي في عالمنا.

هذا التخلف لم يكن سوى عامل نفسي وتاريخي حين تراخى فيه حزام الفاعلية؛ فتراكم في القرون التي تلت إنجاز ما قبل الموحدين، فمثل ذلك رصيداً لنقطة انطلاق جديد. ذلك أن عالمنا المعاصر قد أضرت به الحضارة الغربية، وبالإنسانية، ثم بنفسها أخيراً تبعاً للفوضى في المعايير الأخلاقية والإنسانية حين أسست حضورها على مفهوم الاستعمار؛ مستفيدة مما استسلم لها من تخلف في عالمنا الإسلامي؛ فنصبت نفسها وصياً عليه، وعطلت بذلك قدرته على اللحاق بالمسيرة العالمية؛ لذا كانت أفكار بن نبي دعوة منذ منتصف القرن الماضي ساق لها فيلسوفنا كل عطائه الفكري وكل كفاحه في مواجهة الصراع الفكري.

من هنا فالقابلية للاستعمار مصطلح ابتدعه بن نبي في مضامينه سر فلسفته الفكرية؛ لأن القابلية للاستعمار عنوان دراسة اجتماعية تطبيقية ذات وجهين:

**الوجه الأول:** تحديد أسباب هذه القابلية باعتبارها الصدى لذلك التخلف.

**الوجه الثاني:** مفهوم الاستعمار في ظل الحضارة المعاصرة باعتباره صيغة عنصرية أفلست في تأسيس معنى إنساني في قيمها وتقدم إنجازاتها.

من هنا فالمشكلة الحضارية تبرز دعوة المجتمع الإسلامي للخروج من حدود القابلية للاستعمار ليلج مستوى عالمية المشكلة الإنسانية في وجهيها؛ أي الارتفاع بالإسلام إلى مستوى الحضارة لترتفع الحضارة الغربية إلى مستوى الإنسانية.

## تراث بن نبي في ذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاته ٢٠٠٣ ومئة عام على ولادته ٢٠٠٥

أ- إن المجموعة - وهم من تلاميذ بن نبي عمر بن عيسى وعبد الرحمن بن عمارة والدكتور بو قروح - قد وضعتْ منذ الثمانينات لتراث بن نبي عناوين مختلفة تدور جميعها في فلك واحد هو المشكلة الحضارية؛ فمجموعة (القضايا الكبرى) حددت مرتكزات أساسية في فقه بن نبي تتصل بمفهوم الحضارة من خلال وسائلها الموضوعية: الإنسان - التراب - الوقت. ومفهوم الثقافة من خلال حيوية التركيب بين العناصر الأولية للحضارة؛ ذلك التركيب الذي يستند أولاً على توتر المفهوم الروحي ووتيرة التنظيم الجماعي والعملي في منطقه؛ ثم على الجانب الفني الذي يظهر قيمة الثقافة كإنجاز اجتماعي.

وذلك يتطلب تحديد الاتجاه ووحدته ونمطه في إيديولوجية الحيوية الاجتماعية؛ لذا كان لا بد من حماية نقدية وموضوعية لأي مؤثرات استشراقية في مسيرة الاقتباس من الحضارة الغربية؛ ذلك كله في ترابطه عنوانٌ هام في رشاد المسيرة الاستقلالية.

لقد كان الشباب يتطلعون إلى صيغة من أجل التغيير عبر كتابات بن نبي. وهكذا كانت المجموعة الثانية قد حشدت لها مقالات بن نبي عبر مرحلة الستينات. تحت عنوان من أجل تغيير الجزائر.

ومن خلال هذه المبادرات الرائدة والوفاء لفكر بن نبي قام كل من الدكتور عمر بن عيسى وعبدالرحمن بن عمارة بجهد مشترك في إعادة طبع كتب بن نبي بالفرنسية، وتقديم إضاءات كثيرة في فكر طبيب الحضارة.

ففي عام ٢٠٠٥ أصدرا طبعة جديدة بالفرنسية لكتاب Les grands thèmes بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على وفاة بن نبي عام ٢٠٠٣ - ١٩٧٣ وبمناسبة مرور مئة عام على ولادته ٢٠٠٥، ولم يكن لجهدهما من مطمح إلا أن يفوا لرجل استحق بما أعطى أن يكون أباً لرجال الفكر المغاربة الذين استقوا من فكره.

ويهمنا من هذه الطبعة الجديدة أن نشير إلى المقدمة الجديدة بتوقيع كل من عمر بن عيسى وعبدالرحمن بن عمارة، وأن نقف عند نقطة الديمقراطية في الإسلام وما تدلي من مساحة موضوعية تؤسس لمعيار الحضارة والثقافة والإيديولوجية على سواء.

ذلك أن هذه القضايا لا يمكن النظر إليها مستقلة عن القيمة العليا لاتجاه الحضارة.

فبن نبي يرى أن الإسلام، بقدر ما هو دين، فهو مجتمع يعبر عن الجانب الاجتماعي السياسي. وهنا يحتل الإنسان فيه المرتبة الأولى

باعتباره أصل كل مجتمع. فالإنسان في إطار المجتمع يعمل إما طاعةً لله، أو تطلعاً لبعض مطامح كبرى.ذلك هو شأن الناس إذ يصبحون مجتمعاً تحدوهم بواعث عليا تغذي مطامحهم الكبرى، ويُنشؤون بتأثير هذا الدافع حضارة تتخذ قيمها الأخلاقية من تقاليد رسختها تلك البواعث، وتنسكب معاييرها الجمالية و الفنية والعملية بما يؤسس لثقافتها.وعلى ضوء هذه الإيجابية في المسار الحضاري تنشأ الديمقراطية نتيجة طبيعية لذلك الدافع الإيجابي. إنها نتيجة النفسية الجديدة وليست سبباً لها.

من هنا فالديمقراطية تقع في خطر الفشل حينما نفكر باستيرادها نموذجاً يفرض من خارج الإطار النفسي.

لقد أردنا أن نقف عند نقطة الديمقراطية كما جرى عرضها كمؤشر Indicateur لمدى نسبة العلاقة بين السلطة والقوى الاجتماعية، فإذا كان المجتمع غير ديمقراطي بطبيعته وغريزته في مرحلته التاريخية فإن الانتخابات كطريقة لقيام المؤسسات تقع فريسة اللعب بها وتزويرها حين يكون وعي المجتمع في نقطة الصفر، غير قادر على رؤية واضحة لمستقبله.

هذه النتيجة التي أشار إليها الباحثان هي المؤشر لكل من قضايا: الحضارة - الثقافة - الإيديولوجية؛ وهي بذلك معيار لقياس غروب المجتمع لما بعد الموحدين في تاريخنا، كما هي لقياس أذان مستقبل المجتمع الإسلامي، مما سوف نشير إليه في هذه الدراسة.

ب - هذه المقاربات التي تولاها الشباب منذ الثمانينات إلى اليوم كانت هي في ذاتها مشاعر من التوتر الوطني والحضاري لمستقبل الجزائر.. توتر قلق من أجل عالم إسلامي وجد له في تشخيص طبيب الحضارة مالك بن نبي - على حد تعبيرهم - سبيلاً وما هم فيما يفعلون إلا تواصل أداء لجيل قادم، وأذان وفاء لأب رجال الفكر ليس في المغرب العربي فحسب، بل في العالم الإسلامي.

**عودة إلى:**

**١- مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي.**

**٢- مالك بن نبي ومستقبل المجتمع الإسلامي.**

من التأمل في كلا العنوانين نرى الباحث ينطلق من أساس مشكلة الحضارة في عناصرها الثلاثة: الإنسان - التراب - الوقت.

فقد حاول الباحث أن يحدد مكانة بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي من خلال الدعوة إلى قراءة هذا التاريخ مجدداً طبق شروط وآلية الفكرة البنّابية. كما أنه في الوقت نفسه شاء أن يؤسس لمستقبل المجتمع الإسلامي من خلال شروط وآلية الفكرة البنّابية نفسها.

فالغاية من قراءة تاريخ الفكر الإسلامي عبر معايير معطيات الفكرة البنّابية إعادة تأسيس نَفْسي واجتماعي خارج المؤثرات الاستشراقية، وبذلك يُقَوِّم بصورة صحيحة حركة الحضارة وتداولها، حتى لا يغيب الفكر الإسلامي عن نسق الغروب ثم الشروق مجدداً في حيوية الأساس الإلهي لمسيرة الحضارات جميعاً. فكما هو الغروب في ماضي قرون ما بعد الموحدين فإن الغد يرتبط بمعايير الإقلاع الحضاري تبعاً للسنة الكونية الإلهية.

## أ - مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي

الفكر الإسلامي في حقيقته هو تاريخ الحاجات التي حددتها وجهة الانطلاق وأهدافها في شخصية المسلم المرتبطة بفكرة الوحي ورسالة الإسلام. فما أنتجه المجتمع الإسلامي كله كان نابعاً من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية، وقد انطلقت من ذلك التركيب الهائل للعناصر التي لا غنى عنها لكل حضارة، وهي: الإنسان +التراب+

الوقت. ومن هنا تنمو الفكرة وتحدد بعدها في إطار المجتمع باعتبارها المبدأ لحركة تمارس طاقاتها بمعيار وحدة العمل الاجتماعي وخياراته.

هكذا تتحرك الأفكار والقيم الرئيسية لمسيرة الحضارة، ثم تموت كما هم الرجال. فأبناؤها الذين يخونونها ينزل بهم الانتقام الإلهي، وهذا يعني أن الفكرة الإسلامية لم تفقد أصالتها، بل المسلمون هم الذين خرجوا من التاريخ.

في هذا الاتجاه يعرّف بن نبي القيم القصوى الغيبية في محاضرة ألقاها في دمشق قبل وفاته بعام فيقول: «القيم القصوى الصحيحة ليست هي القيم العليا التي يلخصها المجتمع عبر النظر العقلي والامتحان العلمي لمدى ترابط الفكرة ومدى منطقيتها الداخلية. من هنا فالتاريخ لا ينظر إلى القيم العليا بل إلى القيم القصوى التي ترتبط ببشر يؤمنون بها. فالقيم القصوى هي طاقة الدخول في التاريخ، وهي ليست الحقيقة التي يثبت المختبر صحتها». (راجع مجالس دمشق - مالك بن نبي ص٨٥ حول الحضارة الإسلامية في تداول الأيام والقرون).

فالإسلام الذي نزل الوحي الإلهي به كان طاقة الدخول في التاريخ من خلال ذلك الإيمان «بالكتاب الذي لا ريب فيه»، فالله سبحانه وتعالى حدد في بداية سورة البقرة القيمة القصوى للطاقة الاجتماعية من خلال التصديق بها» ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم تأتي بعد ذلك القيم العليا التي تتصل بموقف المسلم العملي، وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ومن هنا فالمشكلة في النجاح أو الإخفاق، ليست في صدقية القيمة القصوى أي الكتاب الذي لا ريب فيه، بل في مدى فاعلية القيم العليا المتصلة بالمسلم الذي هو سند فاعليتها الاجتماعية.

من هذا الجانب يضع الباحث ما أنتجته الحضارة الإسلامية جميعه في إطار فاعلية بناء الحضارة أو انحرافها ثم زوالها حينما تدخل التاريخ. فأعمال المتكلمين والثيولوجيين والفلاسفة قد مثلت حاجة مجتمع يحمل رسالة، ليقوم بتبليغها عبر حدود ثقافات محيطة به. فهذه الأعمال هي صنع مجتمع يدرك قوته وسلامة تكوينه وتفوق نموذجه؛ لذا لم يغب النشاط عن المجال العلمي؛ لأن المسلمين بدؤوا يشعرون بأن عليهم العمل بكل اتجاه.

فالفاعلية في الأداء ترتبط روحياً بالقيمة القصوى. حينئذ تدرك مرامي رسالتها ودورها الفاعل في الإرشاد القرآني. وقد مثل مجتمع المدينة في قيادة الرسول ﷺ ثم الخلفاء الراشدين الذين هم السند المتضامن والمتطابق مع الفكرة الإسلامية كما نزلت، وهكذا كانت قوة دفعها تحدد مدى مسارها الحضاري، لكن الحضارة في منعطف من مسارها قد تفقد ذلك التوازن والتطابق بين مرجعية صحتها وفاعلية أدائها، وذلك ما حدث فعلاً بعد انتهاء مرحلة الخلفاء الراشدين. فالحضارة باعتبارها الإنجاز في فاعلية الثقافة، فإن تراكم مسارها قد يثْقِل ميزانها وهي في ذروة فاعليتها التاريخية، وهكذا تنفصل الفاعلية عن أصلها في أوج الإنجاز الحضاري ليميل بها إلى الأفول.

فالمسلمون في أحقاب الحضارة الإسلامية قد استمروا في الحفاظ على الأصول. وحين كان المجتمع الإسلامي يعمل بكفاءة كانت عجلة حركته تعمل بإتقان، لكن «عبر آلة تعمل وقد حسن زيتها. فوتيرة إنتاجها تغيب عنها الحاجة إلى خطاب اجتماعي يراقب حركتها».

وهكذا بدأت الحركة تميل نحو الهبوط حين رآها ابن خلدون مع عصر الأسرة الموحدية المغربية، فكان انهيار الموحدين السياسي هو تلك اللحظة النفسية التي خرج فيها المسلمون من التاريخ.

هذه اللحظة كانت البداية في ولادة الفكرة البنّابية من خلال مصطلح القابلية للاستعمار؛ إذ برز فكر بن نبي كطبيب لتشخيص مشكلة افتتح بها فكره علماً جديداً يتعلق بحكمة المجتمع وفلسفته حين يرتبط بمفهوم حضارة هي خارج بنائها وإنجازها.

وينتهي الباحث إلى الإجابة على السؤال التالي:

«هل يستطيع الإسلام اليوم أن يمنح ولادة حضارة جديدة؟».

يجيب الباحث: نعم؛ لأن الحضارة الإسلامية تستطيع أن تقدم اليوم للدارس المحلل موضوعه كي يحلله ويشرحه من خلال وثائقها. فنحن نخلط بين بقاء الإسلام في جوهره كحقيقة، وبقاء المجتمع الذري الذي انتهى إلى جمع من الأفراد.

بعد أن قدم الباحث واستفاض في المنهج البنّابي الذي غذته المعاناة والألم حتى نضج. وهو يبدواليوم أكثر من أي يوم مضى يرسم سبيل خروج العالم كله من أزمته، إذ إن بن نبي أول من استعمل مصطلح العالموية Mondialisme.

«فقد أحيا بن نبي الحقيقة القرآنية نفسها، وقد توارت في ظل سبات من غفلة المجتمع، وفي غمرة تلك المراجعة الروحية وضع بن نبي أسس استجابة حاضر المجتمع الإسلامي لمرجعية القرآن الكريم في بناء الحضارة من جديد.».

## ب - مستقبل المجتمع الإسلامي

من خلال هذا الأفق يتقرر مستقبل المجتمع الإسلامي في الدراسة التي لحقت بمجموعة المقالات التي أعطاها بن عمارة عنواناً رئيساً «العالموية» Mondialisme.

ففي هذا المدى من الرؤية البنّابية نرقب مشروع بن نبي من خلال دراساته، ويبدأ الباحث النظر إلى المستقبل من خلال مكونات فكر بن نبي الذي نما في أتون التجربة. فهناك مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: نظرة بن نبي لنفسه كمُستعمَرٍ يواجه سلطان استعمارٍ لا يبدي أي رغبة في احترام حالته.

المرحلة الثانية: نظرته إلى الوسط المحيط به وقد وسع هذا المحيط إدراكه لمشكلته كنتيجة لقابليته لما يستدرجه الاستعمار نحوه. فرأى في النهاية أن المسؤولية هنا مزدوجة للخلاص من الواقع الاستعماري، وعلى الجزائر أن تدفع الثمن في النهاية.

المرحلة الثالثة: أن مصير الإسلام في المستقبل ومصير الإنسانية واحد، والحل لا بد أن يكون في مستوى الإنسانية.

ومن هنا فإن رسالة بن نبي في إطار القابلية للاستعمار المحيطة بفكره، تبشر بقرب الوصول إلى عالم واحد. ذلك أن القابلية للاستعمار قد استدرجت الاستعمار إلى جانب الكم، وغدت المشكلة في مستوى المصير العام للإنسانية جمعاء.

من هنا يدلف الباحث إلى المفهوم الغيبي لدى بن نبي. فهناك فرق بين صوفية المسار المثقلة بمشكلات نهاية المطاف الحضاري، وروحية الفاعلية في بداية الدعوة. ففي البداية تفتش الروح عن وسائلها. أما روحية النهائية فإنها تجهد لتحتفظ بنتائجها من الانهيار؛ فبين كلا الموعدين تتعاقب الأجيال.

ويضرب الباحث لذلك مثلين: ابن عربي - مالك بن نبي.

فابن عربي إذ ولد في إسبانية في الفترة التي يطلق عليها ما بعد الموحدين - أي فترة مجتمع فقد وسائله المادية فدخل نفق الغروب، وحمل

بيده مصباحاً يتلمس طريقه في ظلمة النفق، وهو يمسك بحبل الفضاء الروحي للإسلام الذي خرج من التاريخ، لكن بن نبي جاء عند باب الخروج من النفق، وقد استوى النور في رؤية الطريق فقدم لإنسان ما بعد الموحدين المواصفات التي تصنع حضارة يُكَفِّر بها الجيل عن تقصيره فيما مضى - فقد أمسك بالبذرة المنغرسة في طمي القابلية للاستعمار بعد ما توقف مجرى الحضارة فحفظها خارج التاريخ بعد أن أقلعت في مداه الحضارة الغربية؛ لكن بن نبي يحاول أن يؤكد صلاحية هذه البذرة لاستعادة دورها في عالم جديد، يتطلب روح الرسالة الإسلامية ووسائل العصر الحديث.

فالعمل في الفاعلية الاجتماعية لا بد أن يتحرك، والمعيار هو التأسي ورياضة النفس في عالم جديد يوطئ الأكناف في مستوى العالم كله.

ومن هنا يرى الباحث معنى الإسلام المكافح؛ فالإسلام المكافح هو المستعلي على مرض الطفولة، والسبيل السهل إلى السلطة السياسية، وهذا ليس لدى المسلمين وحدهم؛ بل هو ينسحب على كل من يعتقد أن في إمكانه تجاوز الفكر والرؤية العميقة حين يكتفي بالقليل في خوض تجربة إثر تجربة.

فالمرابطية اتخذت أشكالاً مختلفة في عصرنا. وهي تبدو اليوم حين تستيقظ الروحانية الإسلامية بعد قرون كما يستيقظ النائم؛ فأول ما يراه أمامه جميع أعضائه، وهو يزايله النعاس قبل أن يستبين له الأفق؛ لذا يقع أسير مشكلاته وخارج حلولها. فمن طنجة إلى جاكرتا المشكلات الإسلامية واحدة لدى السنة والشيعة كما هي لدى غير المسلمين من أبناء تلك البلاد. فالأمر إذن لا يتعلق بمدى اعتقادنا بصحة المذهب الذي نتبعه؛ بل هو بكل بساطة بمدى انسياقنا في مشكلة نفسية وأخلاقية؛ وهكذا نرى أن الأصالة الإسلامية لا تكون دليلاً على تفوق المسلمين؛ لأن الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر.

فالمطلوب إذن أن يبني الشباب علاقة وطيدة مع الفكرة الصافية، نوسع حيالها مدار رؤيتنا وأفكارنا؛ إذ حين نملك القليل من الأفكار تسقط أمالنا على أبطال نصنعهم كما كان الوثنيون يصنعون تماثيلهم؛ فبن نبي حذر من أن نكون في الطريق السهل نُحِلّ مستعمراً مكان مستعمر آخر.

ففي فترة ما بعد الموحدين فإن الإيمان والروحانية افتقدا إرادة التواصل الاجتماعي؛ وهذا المصير ليس هو المصير الأوحد للمفهوم الغيبي؛ بل هو ينسحب على النشاطات الفكرية للمسلمين جميعها؛ فالتراث المكتوب يشهد اليوم للذين كتبوه منذ ستة قرون.

فغياب الطاقة عن مجراها يعني الخروج من الحضارة، وهذا معنى ما يقصده بن نبي بمصطلح: (مجتمع ما بعد الموحدين).

فنحن اليوم نرى قضية تجديد الفكر الإسلامي رهينة إطار البحث في الكتب على طاولة مجمع أكاديمي؛ بينما التجديد ليس قضية كتب، بل قضية فاعلية حضارية؛ فالمشكلة ليست عند بن نبي في أصل الإسلام بل في فاعلية المسلمين؛ فحين يستعيد المجتمع الإسلامي شيئاً فشيئاً ثقته بنفسه فسوف يرى كم أن الارتباط بالشكل والتعصب مُضِرّ وعقيم؛ من هنا فالقابلية للاستعمار طرحت ما يمكن أن نسميه فقه العالمية. لأن القابلية للاستعمار سوف تطرد النزعة الاستعمارية في النهاية حين تصبح خارج النسق من خلال الوعي بأساس مشكلة الإنسان المتخلف، وهي الثقة بقدراته في إبطال فاعلية الاستعمار؛ تلك النزعة التي هي دخيلة على التاريخ الإنساني؛ وهي تختلف عن سائر الإمبراطوريات التاريخية؛ فالحضارة الغربية ابتدعت النزعة الاستعمارية التي لا يعرفها الإسكندر الكبير نفسه؛ وهكذا طرحت فكرة القابلية للاستعمار الجانب الاجتماعي من خلال نظرة بن نبي للمجتمع الإسلامي بعد زوال دولة الموحدين؛ ثم

أسست من القابلية للاستعمار مصطلحاً وضعه بن نبي نقطة انطلاق لمفهوم العالموية.لذا اختار بن نبي رغم المأساة التي حلت بمسيرته أن يرتفع فوق التوجع وذلة الشكوى إلى مواجهة المشكلة في خطابه نحو الآخر. وهكذا اكتشف بن نبي أفقاً عالمياً بما أسس لفكرة القابلية للاستعمار مدى يتعداها إلى لغة سلام عالمي يطوي لغة العنف المقابل في مواجهة الحالة الاستعمارية؛ ويستوعب خطيئة الاستعمار في مفهوم من التسامح في مستواه العالمي.

وينتهي الباحث بعد تفصيل في ضرب الأمثلة فيقول: «يجب على المسلم أن يتمتع بالشجاعة ليعيد التأمل وتفحص ما مضى بصفاء النظر إلى ما تجاوزه الزمن، واطمئنان القادر على قلب الصفحة نهائياً دون احتقار الماضي، أو لا مبالاة من يرميه في سلة المهملات».

والإنسان لا يستطيع السير بعيداً وهو يجر ما خلفه أو يخيم على ضميره ظل من الضباب؛ فالحضارات في ساعة الميلاد تحملها روح الإقدام البريئة من الأفكار المسبقة ومن كل عقدة؛ وبن نبي في فكره يضع الإسلام في تلك المهمة العليا؛ إنه ذلك الإسلام الذي يولد في إطار جديد، وهو منفتح على المعتقدات كلها. فمن أجل تجديد العالم لا بد أن نبني الإنسان من جديد. وهنا فالمعيار واحد في الطاقة والفاعلية لكن تختلف الاتجاهات، والمسلم مدعو لولوج مسيرة العالم بروح القيمة الإسلامية في مفهومها الإلهي الذي يتجلى فيه المسلم جزءاً من النظام الكوني؛ فالباحث يؤكد في النهاية تلك الوحدة الكونية في فكر بن نبي كمكونات لرؤية المسلم للعالم فيقول:

«المسلمون اليوم لا يستطيعون إلا أن يكونوا عامل اتصال وتلاحم لذلك المناخ الجوهري نحو الإنسانية، والعيش المتناغم مع العدالة والمساواة؛ إن عليهم أن يجددوا معنى العدالة الاجتماعية».

ومن هنا فالإسلام باعتباره رسالة هداية فهو الجواب الدائم لوحدة العدالة والخير في مختلف ثقافات العالم؛ إنه رسالة اتصال واحتواء وقدوة في الأداء الحضاري وتضامن مع تلك الثقافات في آسية وتجاور في الهند مع ثقافة الفيدا، إذ كان ذلك في منظور بن نبي بداية الطريق لوحدة الثقافة الإنسانية التي تهزم ثقافة العولمة الاستعمارية، كما أشار في كتابه (الفكرة الإفريقية الآسيوية). وكما تطلع إلى هذا المدى في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) «Vocation de L'Islam».

وقد مات بن نبي وعينه على ذلك المدى الجغرافي في آسية وإفريقية، والذي قصرت عنه القابلية للاستعمار في مناخ الخمسينات؛ وكم كان ألمه كبيراً حين رأى الفكرة الإفريقية الآسيوية وقد غدت إحدى برامج خطط إسرائيل.

فقد كتب في أوراقه الخاصة في ٢٤/ ٤/ ٥٩ ما نقلته جريدة ألمانية أن حكومة بن غوريون أنشأت مؤسسة دراسات دعي إليها متخصصون من آسية وإفريقية تحت عنوان «مؤسسة الدراسات الإفريقية الآسيوية».

أما بعد:

إن الدراستين اللتين قدمهما الدكتور عمر بن عيسى تحملان للباحث في فكر بن نبي عناصر هامة وجديدة في رؤية المدى الذي بسطته دراساته. لذا يمكن وضعهما مقدمةً لمزيد من منهج جديد في تناول فكر بن نبي ومشروعه. فالدراسات التي يقدمها طلاب كرسائل جامعية، أو تلك التي كتبت مقالات قد بقيت في إطار عرض لفكرة بن نبي مجتزأة أحياناً أو كاملة، لكنها بقيت في مجال المقارنة الأفقية للمشاريع والدراسات التي تحدثت عن النهضة من منظور إسلامي.

فالباحث هنا في فكر بن نبي قد قوَّم لنا الماضي والمستقبل معاً في عمق روحي وصوفي حين وضع جانباً محطات مما أنتجته الحضارة

الإسلامية في الفلسفة أو الفنون، وقد توقف عندها الباحثون تحت رعاية الحركة الاستشراقية، وقد أورث ذلك انقساماً في المواقف والاتجاهات لم تستقم به سبل النهوض سواء إسلامية كانت أم غير إسلامية.

فالباحث استطاع أن يتجاوز المحطات هذه جميعاً حين أكد على الفاعلية التي أنتجت وسائلها، فحققت أهدافها؛ فالنشاط الفكري ليس هو المبدع للمجتمع المتحضر، بل المجتمع المتحضر هو الذي يؤسس النشاط الفكري في جميع أشكاله، فالمهم ليس في تجربة التاريخ الإسلامي؛ بل في روح التغيير كما حدث حين نزل الوحي.

وإن قوة حركة التغيير وفاعليته في كل عصر هي المعيار في قياس المسيرة، أما إبداع ما خلف التاريخ الإسلامي من تراث فتلك هي الفاعلية التي خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

من هنا يريد الباحث أن يجدد الروح أولاً في بناء المستقبل، فالفكر البنَّابي لا يُقَارن بما أنتجت الحركة الإصلاحية ولا النهضة الفكرية التي وقفت عند محطات متعددة من تاريخنا الإسلامي ثم من عصرنا الحاضر. فالمنهج البنَّابي ليس تفسيرياً وإنما هو عودة إلى العناصر الأساسية لتعيد تشكيل حركتها التاريخية عبر الأفكار الجديدة، وهو في هذا سابق في رؤيته جميع الدراسات.

فمالك بن نبي أنشأ لأفكاره مؤسسات تستطيع أن تعالج مشكلات الداخل والخارج، سواء في المستوى العالمي عبر كتابه الفكرة الإفريقية الآسيوية أو دراسته فكرة كومنولث إسلامي.

لقد أتاحت لنا أسرة بن نبي الاطلاع على كثير من استبطان فكر بن نبي في متقلب حياته وهو يُقَوّم مسيرته الفكرية. فنشرت مجموعة يوميات شاهد للقرن في مجلد واحد ضمت إليه مجموعات carnets Les التي أودعها خواطره، وهو عمل تم بإشراف معالي الوزير الصديق نورالدين

بوقروح ونشكره على جهوده في هذا السبيل. وعلى كتابه عن مالك بن نبي : L' Islam sans Islamisme .

ففي المرحلة القاهرية - وكان بن نبي قد عين مستشاراً لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي أنشأتها المرحلة الناصرية - وضع بن نبي دراسة فكرة كومنولث لتكون منهج هذه المنظمة، وقد كتبها ما بين ٧-١٨ أكتوبر ١٩٥٨ (راجع كتاب بوقروح صفحة ٢٠٦) وأرسلها مع رسالة إلى أنور السادات يهمنا أن نقف عندها، نترجمها عن الفرنسية:

*«إنني أعتقد أن هذا المعيار من الدراسة سوف يشكل أفضل مرشد للجيل الحاضر وأفضل ترياق ضد تلك الفوضى التي اكتسحت ضمير الجيل في هذه الأيام.*

وأرى أننا إذا ما حددنا مهمة الكومنولث الإسلامي كما عرضناها؛ فإن المؤتمر الإسلامي سوف يمنح الجيل الإسلامي الحاضر معنى رسالته التاريخية، وسوف يجنبه في الوقت نفسه المآسي التي تعتمل في ضميره».

لم تجد رسالة بن نبي ولا دراسته صدى في ذهن المؤسسة؛ فكتب في مذكراته الخاصة:

*«إنها مؤسسة لغير رسالة. فهذه المؤسسة جمعت العلماء الأكثر شهرة، ووجوهاً سياسية من الدرجة الأولى، وهكذا غدت وسائل بغير هدف ورجالاً بغير مهمة».*

فقد كان أكبر ما أثر وصدم بن نبي أن كتبه: الظاهرة القرآنية ثم شروط النهضة - وجهة العالم الإسلامي - الفكرة الأفريقية، والتي مثلت في نظره مشروعاً متناسقاً لكنه في إطار المرحلة القاهرية نظر إليها المسؤولون في القاهرة على أنها إنتاج متراكم لعالم يملأ المكتبات عناوين مختلفة (راجع Les carnets.20/5/58 رسالة من أنور السادات يطلب إليه

فيها إعداد دراسة مقارنة بين المسيحية والبوذية. كذلك ٤/ ١٠/١٩٥٨ يطلب إليه الموظف في المؤتمر الإسلامي إعداد كتاب عن أهمية وضرورة الدين).

ويعلق بن نبي على ذلك بأن الهدف هو توجيه إنتاجه خارج مشروعه، ووضع كابح Freinage لمسيرة مشروعه عبر المؤسسة بتوجيه من الاستعمار، لكنني أرى شخصياً أن المناخ الفكري في تلك المرحلة المضاءة في فضاء الناصرية لم يكن قادراً على استيعاب المشروع في نظرته نحو مفهوم النهضة، وهذا ما يبدو أن مالكاً قد شعر به في المرحلة التالية عند توليه مسؤولية مدير التعليم العالي في الجزائر.

فقد كتب في مذكراته الخاصة (راجع يوميات شاهد القرن Les carnets. ص٤٣٢-١٩/٨/ ٦٥) في أثناء توليه مديراً للتعليم العالي. نترجمه كما يلي:

*«إن رحلتي إلى قسنطينة وإلى تبسة أبرزت المأساة الإسلامية. إنني أعرف أن الحل الذي أقترحه للمأساة الإسلامية منذ ربع قرن هو صحيح فعلاً. لا بد من حضارة لحل المشكلة الإسلامية؛ فكل الحلول الأخرى ليست سوى دواء غير شاف؛ وإذن فمن وجهة نظر عقدية لا يوجد ظل من الشك في ذهني بأن الحلول التي طرحت جميعها حتى الآن لمشكلة المسلمين هي غير صحيحة، باستثناء الحل الذي أقترحه، فهو صحيح، ولدي الوسيلة نفسها لمراجعة إخفاق الحلول الأخرى، لأنه لدي النتيجة المأساوية أمام الأعين، للأسف، من طنجة إلى جاكرتا حتى إنه ليسمح لي في اتجاه ما القول بعبارة أرخميدس «أوريكا» لكن كمشروع للحل الذي أقترحه هنالك جملة صعوبات كبيرة تجعله شبه مستحيل*

للتطبيق على الأقل في الحالة الراهنة للأشياء؛ لأن الحل الذي وضعته يقف أمامه سدان في وقت واحد: (القابلية للاستعمار ثم الاستعمار).

فهذان العاملان يعمل كل منهما منفرداً أو يعملان مجتمعين. وهكذا تنشأ مشكلة تطرح نفسها ألماً على ضميري في وجهيها:

فهل علي أن أعتبر المشكلة مجرد مشكلة كاتب يقول ما يعتقد أنه صحيح ويترك «كميكيافيلي» للآخرين أن يحلوا المشكلة؟ أم أن أكون كرسول يعتقد أن مهمته ليست مجرد تبليغ رسالة، بل عليه أن يعمل لإدخالها في العقول والقلوب متحملاً الأرق ومصاعب الأكل والشرب ومخاطر الدم؟.

ومع ذلك فالانطباع الأخير لدي هو نفسه مع كل هذه التضحية:

لن أنتصر على التحالف القوي بين الاستعمار والقابلية للاستعمار في النهاية؛ والله وحده هو القادر على حل مشكلة العالم الإسلامي، ولكن هذا الحل أسميه المعجزة.

فالمعجزة هي التي سوف تختصر كل العناصر التي تجتمع في هذه اللحظة ضد الحل الذي أقترحه. إذ المعجزة هي التي توفر كل الشروط الملائمة لهذا الحل.

لكن شيئاً يسجل في حالتي الفكرية الآن؛ وذلك إذا ما بادرني أحدهم بكلمة قائلاً لي: خذ السلطة في الجزائر من أجل أن تحقق الحل الذي تقدمه.

*إنني أخاف أن أجيب؛ لأنني غير قادر في الوضع القائم في العالم الإسلامي حتى لو أعطيت سلطة كاملة على العالم الإسلامي»*.

فمفكرنا يطرح الإسلام كأساس لحيوية الروح الإسلامية المتجددة في ساعة الإقلاع، وقد اكتملت شروطها كسند حيوي لرسالة الإسلام في عالم تبحث فيه الإنسانية عن ملاذ للسلام في توازن حضاري جديد، كما قال في دروسه في دمشق.

من هنا يبدأ دور المسلم ورسالته في انبعاث جديد حين يخرج من أسر القابلية للاستعمار في مفهومه الفكري والنفسي. فبن نبي لا يزال يشعر بذلك الحاجز الذي يمثله واقع المجتمع الإسلامي في تخلفه عن إدراك قيمة رسالته.

فقد ذكر مالك بن نبي في أوراقه التي صدرت تحت عنوان Les carnets في مجموعة يوميات شاهد القرن يوضح رؤيته في هذا السبيل، فكتب في أوراقه ما نترجمه بتصرف:

«في هذا المساء (٢٩/ ٥/ ٥٩)... زارني طلبة سودانيون..

وإذ أتحدث عن ذكرياتي في أوربة وباريس طرح علي أحد الطلبة السؤال التقليدي التالي: كيف لنا - نحن المسلمين غير المتحضرين - أن نحمل رسالة الإسلام في العالم المتحضر؟

السؤال مستوحى بالتأكيد من الأفكار التي طورتها، والشاب الذي طرح علي السؤال شعر بأنني وضعته حبيس هذا التناقض الذي أثارته أفكاري في ذهنه.

لذا كان عَلَيَّ أن أحرره من هذا التناقض.

أجبته بأن طرح السؤال بهذه الطريقة غير سليم. فالعالم لا ينتظر رسالتنا الإسلامية، بل ينتظر كل رسالة تحمل إليه الخير، والسؤال إذن حول ما إذا كان هنالك للإنسانية حاجة أساسية للإسلام في الواقع المادي والمعنوي الراهن للعصر تفي بسعادته وإنقاذه؟

إذا كان الإسلام يفي بهذا الهدف أستطيع القول: إن العالم ينتظر رسالتنا، لا بد إذن في البداية أن ندرس ونمحص وجود مثل هذه الحاجة لنبني عليها سؤالنا. وأن نقول في النهاية:

هنالك إذن انتصار لرسالة إسلامية في العالم المتحضر إذا ما رفع المسلمون مستوى أدائهم العالمي إلى مستوى حضاري.

بعد انصراف الطلاب دوّن بن نبي في أوراقه ما يلي:

*«لقد كان لدي شعور بأنني اختصرت المناقشة بأن أفكاري هي التي تمثل الجهد الذي يكيف الإسلام مع العصر الحديث، وأعتقد أن أحداً قبلي لم يفعل شيئاً في هذا الطريق، وهذا الأمر هو الذي يسوغ في الإجمال كل تلك الصعوبات والتعب في الطريق الذي أشرت إليه سابقاً في مذكراتي»*.

هذه المحاورة الاستبطانية في فكر بن نبي لم تحل دون متابعة المسيرة بعد أن تحلل بن نبي من قيود الوظيفة.

إن تلاميذ بن نبي يحملون المشعل اليوم، ولطالما أمل في هذا الأفق عام ١٩٥٨ حين اقترحنا عليه إنشاء مجلة على مستوى العالم الإسلامي، تؤسس لعلاقات فكرية في خطة الطريق التي وضعها في كتابه المختصر (فكرة كومنولث إسلامي)، ثم أسس لقواعدها في كتابه (ميلاد مجتمع).

لقد أعطت مقاربة الأستاذ عمر بن عيسى الضوء لمسار لا يقع فيه السائر حيران أمام الحواجز التي نصبتها النهايات في مسيرة الحضارة المعاصرة، فنداء بن نبي أصبح في سمع الأجيال سؤالاً يتطلب الجواب. تلك بداية الخروج من النفق نحو مستقبل المجتمع الإسلامي.

**طرابلس - لبنان**

**عمر مسقاوي**

٢٠٠٧/١/١٠

المبحث الأول

# مالك بن نبي
# في
# تاريخ الفكر الإسلامي

إن الموضوع الذي اقترحناه للدراسة يستدعي عنوانه بعض الإيضاحات. فأفكار بن نبي ربما درست من خلال المظاهر المعاصرة في مضمونها، كما درست من خلال الأحداث التي لامست حياة المؤلف أكثر منها وجهة نظر من التاريخ أو من الأفكار التي برزت عبر مسيرة المجتمع الإسلامي.

ما يهمنا من البحث هو هذا الأفق من الدراسة، وسنرى أن منهجاً في هذا السبيل ليس سوى محاولة ندلف بها إلى فهم الفكرة البنّابية نفسها.

لذا سوف نعتمد على نشوء وظهور الفكر البنّابي نفسه داخل تجربتها؛ إذ بها نستطيع أن نفسر فكره.

فإذا أردنا أن نبحث العلاقة مثلاً التي تربط بين شخصية كبيرة أنتجتها هذه الأرض الجزائرية أعني الأمير عبد القادر الجزائري من ناحية وبين بن نبي من ناحية أخرى؛ فمن المؤكد أننا سوف نرى في المجال الجزائري أعمال كل من الرجلين لكن لغير رابط بينهما. ولكن إذا ما صنف فكر عبد

القادر الجزائري في إطار التراث الإسلامي، أي تلك الصوفية الفكرية أو أي فكر غيبي، فإن عمل بن نبي منذ البداية لا يمكن أن يجد أي رابط بينه وبين الأمير؛ لكن الأمر يختلف إذا ما عدنا إلى المنابع الأولى للفكرة الإسلامية، أعني المرحلة الجنينية في لحظة الرسالة إذ نرى المسلمين قد تكوَّن لديهم مظهر أدبي بقدر ما هم جماعة تبني علاقاتها الاجتماعية وذلك عبر القصيدة؛ فالرسول ﷺ كان لديه شعراء، وهكذا نعرف فوراً أن العلوم والفنون الإسلامية بدأت كإنتاج مجتمع متحضر خرجت من رحم إرادة مشحونة بحرارة الإيمان إذ تَتَابع معها العمل صَفّاً إلى الحضارة التاريخية.

فأعمال المتكلمين الثيولوجيين وكذلك الفلاسفة هؤلاء جميعاً مثلوا حاجة ماسة لمجتمع يحمل رسالة، وإن من الخطأ وصم الفلاسفة بالمروق، أو أنهم يباشرون ما يهز إيمانهم أو يعريهم من الإيمان نفسه، فهم قد حملوا عبء التعرف على الفكر الإغريقي لحساب الإسلام حين أغنوا الطرق والوسائل التي بها ردوا على التساؤلات القادمة مع الفتح والتبليغ، وإذا ما تساءلنا عن جهودهم وما إذا كانت تكللت بالنجاح فتلك مسألة أخرى. فالاجتهاد لا يعني الجواب على التساؤلات جميعها، ولا هو يعطي في النهاية إجابات دائمة لجميع المشكلات.

فربما كانت إجابات بعض المتكلمين ساذجة، وأتكلم هنا مثلاً عن تفسيرات أبي علي الجبائي (القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) وما يتصل بنظام السماء، لكنهم كانوا بكل حال يقدمون في زمنهم أفضل ما يمكن للإنسانية أن تقدمه من إجابات، ذلك أن الإنسانية تتقدم دائماً عبر الفرضيات، لكن في الأساس فإن الحدس المعتزلي ما كان معزولاً في الغالب عن أساس منطقي ظاهر حين انتهج نطاقاً من المعرفة صافياً غير مقيد باللاهوت الإسلامي.

هذه الأعمال عبر القرون الهجرية الأولى كانت من صنع مجتمع يدرك قوته وسلامة تكوينه وتفوق نموذجه، لذا لم يغب النشاط عن المجال العلمي؛ لأن المسلمين بدؤوا يشعرون بأن عليهم العمل في كل اتجاه حين شعروا بأنهم هم الأفضل والأكثر نفعاً، وأنهم القدوة للإنسانية جمعاء، من هنا فالمجتمع الإسلامي كان يواجه مشكلاته بصورة طبيعية كما ينبغي أن يفعله كل مجتمع متحضر.

فبن نبي يرى أن النشاط الفكري هو إنتاج المجتمع وليس المؤسس لحركته. إنه مؤشر الصحة في المسار، إذ ينتج المجتمع المتحضر الأفكار كما ينتج الأشياء والأدوات اللازمة والضرورية لمسيرته التاريخية.

فالنشاط الفكري ليس هو المبدع للمجتمع المتحضر، بل المجتمع المتحضر هو الذي يؤسس النشاط الفكري في جميع أشكاله.

فبن نبي يرى أن ما أنتجه المجتمع الإسلامي من النشاط الفكري كان نابعاً كله من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية حين نزل الوحي، وخاطبت الرسالة النبوية روح المؤمنين، وكانت الشعوب التي آمنت بعدهم تحمل بذور التغيير كما في لحظة الرسالة نفسها، أي محتوى تلك اللحظة المشحونة والقوية، إذ من طاقة تلك اللحظة فاضت الإمكانات المتدفقة في مجرى الزمن. ففي تلك اللحظة انطلقت نواة ذلك التركيب synthèse الهائل للعناصر التي لا غنى عنها في كل حضارة: الإنسان - التراب - الوقت. وعبر هذه العوامل الثلاثة كان العامل الإنساني هو الأكثر تصميماً نحو الهدف؛ إذ من خلاله وعلى عاتقه، كما يجري في أي تفاعل كيمائي، انطلقت شرارة تركيب هذه العناصر الثلاثة L'élément Catalyseur في فكرة تحمل في طياتها الأمل حين تحولت الرسالة النبوية إلى فاعلية اجتماعية، ومنذ هذا الإقلاع فالمجتمع المتحضر مؤهل للإجابة جواباً مترابطاً على كل سؤال.

كان ذلك نقطة انطلاق لمجتمع يعمل بصورة طبيعية وطبق القواعد التي عليها مجتمع يباشر سلطانه على مصيره، وهكذا سار في التاريخ رغم ما حمل هو نفسه من بذور شرخ يرى بن نبي أنه قد بدأ نفسياً في معركة صفين عام ٣٧ هجرية عام ٦٥٧ ميلادية، إذ الضمير الإسلامي أصيب بمرض مزمن لغير سابق حين حدث في داخله شرخ غشَّى أبصار المسلمين عن إدراك وحدة معاييرهم. ومن هنا بدأ انفصال بين الحق (أي الحقيقة الأصلية) من جهة والفاعلية من جهة أخرى، ومن المؤكد أن هذا المرض لم يفتك بصورة مباشرة، بل ربما كان يتسرب من خلال تلك القصة التي وصلت إلينا عبر تلك الكلمة المشهورة «الصلاة وراء علي أحكم وأكثر تقىً، والجلوس على مائدة معاوية أكثر دسماً».

ففي ذلك الشرخ غدت الصحة والصواب sains تحمل في قليل أو كثير هذا المرض في النهاية.

فبن نبي في شرح أفكاره يحب دائماً أن يصور الأمور الاجتماعية الصغيرة في تفاصيلها والتي تبدو من خلال السلوكيات الاجتماعية البسيطة كاشفة لمرض اجتماعي عام.

في سنوات كنا فيها تلاميذه (يجب أن نشير هنا إلى دور شقيقي رشيد بن عيسى في اكتشاف الشباب لهذا المفكر الكبير، وعلى الخصوص من خلال الندوات التي افتتحها بن نبي حول الفكر الإسلامي)؛ إذ كان بن نبي يفكّك عناصر آلية الحضارة الإسلامية؛ لذا فدروسه لم تكن من خلال فرضيات، بل كانت علماً لكل ما في هذه الكلمة من تأسيس. وهكذا شعرنا أننا أمام مفكر كبير؛ مفكر استثنائي؛ وانطلقنا؛ والحمد لله؛ إلى مزيد تعرف عليه، وكنا لذلك فخورين به؛ وإنني اليوم كذلك فخور حين أدرك كم كانت دروسه صحيحة وشمولية، فقد قادنا إلى الإمساك بمعنى التاريخ الإنساني ثم بمعنى الأحداث الحاضرة.

فبن نبي كان يبشر بقرب الوصول إلى عالم واحد إلى حضارة هي منذ الآن في مستوى الكرة الأرضية؛ وإلا فالكارثة إذا فشلت. ومن هنا فإن دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين هو قدر الناس جميعاً في النهاية.

ففي مقال نشر في صحيفة الجمهورية الجزائرية la république algérienne في ٢٦ مارس ١٩٥٤ كتب بن نبي:

*«أو ليس الحل هو في تطور يضفي على الحضارة طابع الأممية والقارية، أي طابع عالمية تفرض على الأوروبي عالم الآخرين، إذ سيجد في رحابهم هنالك معنى الإنسان؟*

*فالعالمية الحضارية سوف تكون الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الغرب المتورط بشيطان الاستعمار؛ إذ في إطاره سيتعرف الأوروبي على الآخرين الذين لم يكن يرى فيهم غير طرائد صيد؛ إذ سوف يتحدث بكل تأكيد عن عالمية خارج مناورات السياسة الراهنة لتلك القوى التي تحاول أن تهيمن كمراقب وحيد على العالم لتؤسس عالمية مرادفة synonime لما تسمى «الأمريكانية»*

*لذلك كله يعتمد اليوم كما في كل يوم على دور المسلم. إنه الاسلام الذي يستريح إليه مستقبل الإنسانية».*

## الفكرة ودورها

الفكرة باعتبارها المبدأ للحركة والحياة يميزها عن الوثن Idole (الذي هو المؤشر للخمول والموت) أنها تمارس طاقتها الخفية في الضمائر والتي هي الروح في بنية المجتمع. لذا فهي الروح التي تنسج التناغم والفاعلية والتماسك في مسيرة الحياة.

غير أن الأفكار التي تلهم الرجال ليست دائماً صحيحة أصلية؛ ففسادها لا يحول بينها وبين الفاعلية في الإرادة التي تنشئ الحضارات، فالأفكار تعيش كالرجال؛ بيد أن فسادها حين يحقق حضوره بصورة نهائية فإنها تسقط في امتحان التاريخ وتموت تلقائياً، وتصبح في مستودع الأفكار الميتة، لأنها لم تجب في نهاية المطاف على تطلعات الناس كالشيوعية التي صرعها الموت في النهاية من خلال تناقضاتها وعدم كفايتها؛ رغم أن البلد الذي انتهجها كان في أوج القوة العسكرية، وهكذا ماتت كما ماتت فكرة الجغرافية في ثبات الكرة الأرضية لدى بطليموس في القرن الأول الميلادي.

لكن بالمقابل وحين تثبت الفكرة أصالتها الخاصة بها suigeneris فإن أبناءها الذين يخونونها ينزل بهم انتقام الآلهة، فعند بن نبي الإسلام ليس هو الذي افتقد قوته بل المسلمون هم الذين حرفوا فكرة الإسلام، فاستحقوا العقاب حين افتقدوا شيئاً فشيئاً الطاقة التي وصلت إليهم من الجيل الإسلامي الأول.

فالفكرة الأصيلة تؤتي حصادها حين تغرس بذورها في التربة الخصبة، لكن التربة يمكن أن تتحول إلى أرض جرداء، فالذي تسبب في تشتيت المجتمع الإسلامي إنما هو تراكم أخطائه التي ابتعدت شيئاً فشيئاً إلى أن انقطع به حبل الاتصال بالمبادئ المؤسسة لمسيرته التاريخية، تلك هي دروس بن نبي وهي تمثل مادة تعلو بالتفكير إلى أعلى مستواه، لذا فهي صالحة اليوم لأن تعتمد في الدراسات المقارنة. وأفضل طريقة لتخليد ذكرى أستاذنا هي أن نتابع جهوده في البحث النقدي في جميع الاتجاهات التي اتجهت إليها فكرته؛ وعلى جميع الصعد التي تقتضيها مصلحة المجتمع الإسلامي.

من رحم هذا الأفق ولدت الفكرة البنّابية. فالطابع الخاص للفكرة

البنّابية يفسره الطابع الخاص للمرحلة التي تمر بها الأمة. وإذ هي الأمة خارج التاريخ فهي لا تشبه سوى ظلها.

فالمأزق الذي تمر به اليوم ما كان يمكن للمفكرين الأول أن يواجهوه، إذ لم يخطر في خاطرهم ولا في حسابهم انهيار الأمة لدرجة تصبح فيها مستعمرة من الأجنبي؛ لذا لم يكن لديهم تصور وفق عبارة valery أن يعتري حضارتهم الموت والانحلال يوماً.

فالمجتمع الإسلامي حين كان يعمل بكفاءة وإتقان، فذلك لأن عجلة حركته كانت مشحمةً بإتقان أيضاً، وهنا يغيب عنه وزن خطاه وإدراك عوامل قهره حين يباهي بإنتاجه العملي، فعبر آلة تعمل وقد حَسُنَ زيتُها فوتيرة إنتاجها تغيب عنها الحاجة إلى خطاب اجتماعي يراقب حركتها.

غير أن المسافرين إذ يعودون من سفر إلى بلد هنا أو بلد هناك بعيداً عن بلدهم يحملون في ذاكرتهم شيئاً من علم الأجناس يتسرب إلى ملاحظاتهم حين يدونون مشاهداتهم بدقة، وقد أدرك ابن خلدون إذ جاء في زمن يمكن له فيه أن يرى المجتمع الإسلامي كهيكل متكامل يميز صحته من مرضه، وحين رآه يستكين للحظة الغرق، فروى كما يروي شاهد من ركاب سفينة تيتانيك لحظة غرقها. لكن هذا الشاهد في العادة لا يستطيع أن يحدد في الوقت نفسه أي نقطة من حجم الكارثة قد حل بالأمة لحظة هذا الغرق.

لذا فإن نقطة البداية في ولادة الفكرة البنّابية قد وجدت مرجعها التاريخي هنا في مجتمع ما بعد الموحدين كنقطة قياس لحجم الكارثة.

فبن نبي يرى في الأسرة الموحدية المغربية المحاولة الأخيرة لرأب الصدع في المجتمع الإسلامي؛ لذا كان انهيار الموحدين السياسي هو تلك اللحظة التاريخية والنفسية التي خرج فيها المسلمون من المسرح

الذي يصنع التاريخ، ودخلوا شيئاً فشيئاً في ظلام المهانة والخضوع لشروط الاستعمار.

فرجل ما بعد الموحدين هو ذلك الرجل الذي استقال من التاريخ. الرجل الذي افتقد الفاعلية الاجتماعية، وأضحى قاصراً عن استعادة المبادرة المبدعة لجذوره في العصر الذهبي، لذا فهو يسجل لحظة الانقطاع.

صحيح أن المسلمين استمروا بعد ذلك يحافظون ظاهراً على الرأس خارج الماء لكن الظلام كان قد بدأ يخيم وهو يسدل ستاره خطوة خطوة على من أصبحوا خارج مسرح الحضارة. فمنذ ذلك التاريخ غدوا غير قادرين على إيجاد ذلك التركيب التاريخي بين الإنسان والتراب والوقت بروح ذلك الإيمان الأول لجدودهم في المدينة المنورة، وهكذا أزرى بهم العجز وبقساوة إلى العدم.

فابن خلدون الذي مات عام ١٤٠٦م قد فهم هذا، إنما ليس كرجل علم بل كرجل سياسة؛ وإذ لا حظ اليأس في الروح فقد بدأ يستثير العصبية ليحفز روح الأمة وهي سادرة في حتمية الخمود.

فابن خلدون الذي ربما فكر في لحظة أن يجد في تيمورلنك منقذاً للأمة حين اكتفى بأن يحاول تصوير الوضع القائم دون أن يشعر بأنه قد اكتشف علماً جديداً (علم العمران) بمعنى علم الاجتماع. الذي يرقب في المجتمع الفاعلية والقوة.

لابد أن نشير هنا إلى أن الكلمة العربية «العمران التي هي من جذر الاستعمار الذي يترجم الكلمة الفرنسية colonialisme لكن كلمة العمران في المصطلح العربي تفسير ما هو قائم؛ فيما الكلمة الفرنسية تستدعى الاستعمار من الخارج. (فكل كلمة أعطت معناها من خلال بيئتها ومرحلتها التاريخية).

فإنسان ما بعد الموحدين غدا إنساناً قاصراً عن الإبداع نفسياً متمرداً على النقد الذاتي؛ متمرداً على الأفكار الخلاقة، ليس لديه الشجاعة ليعترف بحالته فيتهم دائماً الآخرين، من هنا قاده ضعفه إلى حالة (القابلية للاستعمار) فأصبح مستعمراً، لذا فهو يتهم الاستعمار بوصفه سبباً وليس نتيجة لحالته.

قراره ينتهي نصف قرار حين يعمل؛ لذا فالمحصول قليل وسيئ معاً؛ وهو مع ذلك راض عن نفسه دائماً حين لا يعرف كيف يدين نفسه ويحاسبها. من هنا لم يعد رجل التاريخ، بل هو رجل الماضي، وهو لذلك نموذج حالة نفسية تسيطر على مجتمعنا.

رجل ما بعد الموحدين إذ نال الاستقلال ليخرج من بؤسه ظن أن حاله ستتحسن تلقائياً وبسحر ساحر؛ لكنه وبعد نصف قرن من الاستقلال أوغل في البؤس، كما لم يكن من قبل؛ لذا فهو رجل الخداع ولكن يخدع من؟ إنه يخدع نفسه حين يمارس لعبة الأقنعة، فهو في أيامنا إسلامي حين يختار وجه المسؤول الملتزم، أو وجه بعثي، أو بربري ليقدم الدليل على فرادته (Son originalité) إنه منذ أربعين عاماً اتخذ شعار المكافح ماركسياً، أي تقدمياً، لكنه الآن ديمقراطي جمهوري، إنه مستعد لكل دور إلا أن يكون صادقاً مع نفسه، والآن عبر جهد أخير يرغب في تحسين فنّه؛ لذا يضع على وجهه قناع ما بعد الحداثة، لكنه لم يعد يخدع أحداً.

هذا الموقع الجديد يقتضي حتماً فكراً جديداً لا يصنَّف من بين الأفكار التقليدية الإسلامية.

فبن نبي ينتمي ويعيش هو نفسه في مجتمع منهار سحقت مرتكزاته مرات عدة حتى أضحت كتلك الأعمدة التي نزورها بين الأطلال الرومانية.

من هنا فإن إشكالية بن نبي تتخذ طابع قضية علمية بعيدة عن أي استشراف روحي؛ لذا فقد وضع ندواته تحت عنوان عام (مشكلات الحضارة).

تلك كانت منذ البداية قضية مقارنة؛ إذ فكر هنا كطبيب يسعى لتوصيف علاج لجسم فقد القدرة حين أقعده المرض عن المسير؛ غير أن الدواء الذي يصفه بدا مراً منذ البداية وقليل من الرجال من هو مستعد للتجربة أو لتجرع مرارته.

لكن فكرة بن نبي فتحت المجال لعلم جديد، هو بعض ما نسميه Sociosophie بمعنى حكمة المجتمع وفلسفته حين يربط بمفهوم الحضارة ما هو خارج عن بنائها وإنجازها. فهو ليس حالة لطبيعة ما أو نتيجة لحركات اجتماعية وأهداف خلاقة أو نصر عسكري أو اكتشاف أو اختراع في مختلف المجالات، فهذه كلها إنتاج حضارة في مجتمع إنساني يتمتع بحيوية ثقافته.

وإذ المجتمع الحيواني بالمقابل لا يدرك سقوطه إلا بفعل من يسوسه من البشر، أو عبر كارثة طبيعية، فإنه على العكس من ذلك، فالمجتمعات الإنسانية تخضع لظاهرة دورة تنعطف وترتد إلى الوراء ثم تعود؛ إنها الدورة الحضارية.

فهناك دائماً حضارة إنسانية لكنها تنتقل من بيئة جغرافية إلى بيئة جغرافية أخرى تبدل خلالها إلهامها الروحي، حين تستنفد طاقاتها تنتقل إلى حيث تتجدد في قوى بكر غير مستهلكة.

المؤرخون يعرفون اليوم ما يزيد عن عشرين حضارة في مسيرة الإنسانية. لكن بن نبي لم يقف عند هذه المقاربة للتاريخ، ولم يكتف مثلهم بالنظر إلى الحضارة عبر تعريفها العام الذي يجيب بصورة كافية

على المواضيع المتعلقة بدراسة التاْريخ؛ فعددُ الحضارات العالمية الكبرى يعرفه الجميع.

نظرة بن نبي تعدت رؤيته تاريخ الحضارة إلى الشروط النفسية لمجتمع تؤهله أصوله الروحية إلى بناء حضارة؛وهي الشروط النفسية ذاتها التي تؤدي حين يخلفها وراءه إلى حتمية انهيارها.

فأي مسلم يدرس لأول مرة هذا الجانب للحضارة، فسيجد شيئاً يفسر نفسه بسهولة، إذ سيكون شاهداً لأول مرة على انهيار حضارة ما، حين لا يكون المبدأ الروحي الذي ارتكزت عليه يمارس دوره.

لذا ينشأ هنا سؤال: هل يستطيع الإسلام اليوم أن يمنح ولادة حضارة جديدة، هل يمكن أن يكون قوة ذلك الأصل الملهم لدورة ثانية للحضارة؟

ذلك أن الحضارة الإسلامية لا تزال تقدم اليوم للدارس المحلل موضوعه، إذ لديه ما يحلله ويشرحه في جسم الحضارة الإسلامية الذي ما يزال أمامه يبسط له مراحل الماضي وأحداثه السابقة، فهي معروفة بتفاصيلها الدقيقة بفضل توثيق مكثف وكاف لكشف جميع أسرارها، فماضيها لم يقع في الميثولوجية، بل سجل علماً حديثاً.

لنتصور أنها الوحيدة بين الحضارات السابقة في عدد المخطوطات العربية الإسلامية التي خلفتها في مختلف عهود الإسلام؛ إذ فاقت ثلاثة ملايين وثيقة، وليس هنالك حضارة مضت قدمت للبحث النقدي والعلمي مثل هذا الحجم من المعلومات. ومن المفارقة أن هذا الحجم الهام من المصنفات التاريخية التي أنتجتها الحضارة قد غدا غير مقبول لدى كثير من الطروحات، وهنا نقول الحقيقة، لأن الحضارة الإسلامية لم تعد تمسك بزمام المسار، ولا بركاب الأحداث منذ قرون. وهذا يكفي عبر

مؤشرات التطور جميعها لنقرر بأن المسلمين في حالة إفلاس طبق جميع المعايير التي تقاس بها حالة التقدم في المجتمعات.

فنحن لانزال نخلط بين بقاء الإسلام في جوهره حقيقةً، وبقاء المجتمع الإسلامي الذري والذي انتهى إلى جمع من الأفراد. لا شك أن الإسلام له حضوره في العالم، لكنه خارج حالة المسلمين الذي يلفتون النظر في غيابهم، رغم أن الذين يؤمنون بتعاليم رسول الإسلام يمثلون وزناً ديموغرافياً لا بأس به.

إن أعمال المستشرقين، رغم إيجابيتها، فإنها - لا شك - لها زاوية غير بريئة من التأثير في الفكر الإسلامي الحاضر، إذ توحي للمسلم، من خلال آرائهم، أن عظمة الماضي تغني عن أي جهد في الحاضر، وأن هذا الماضي العظيم يستحق أن يكون له مكان في تنظيم الأمم. لا شك أن الاعتماد على ذاكرة الماضي أمر مشروع ولا غنى عنه في تواصل كل ثقافة، لكن الاكتفاء بما أنجزت عظمة الماضي سم قاتل، وتَصحُّر في الحاضر.

فابن سينا مثلاً وابن رشد كلاهما فيلسوفان وطبيبان أعطيا الحضارة الغربية أكثر مما أعطى المسلمون والعرب لكن ابن سينا وابن رشد ليسا وحدهما فحسب، بل هناك أعمال الرياضيين والفلكيين الذين أسسوا للحضارة الغربية، وقد عرفناهم جميعاً عبر الغرب حين اكتشفهم لنا فهل إذا عادوا إلى العالم سيعرفون في مجتمعاتنا؟

فبن نبي هو الذي أزال من الطريق هذه الأوهام، وقدم لأذهاننا الحقائق الشفافة الكاشفة، وذلك حين عرّى مفهوم المجتمع الإسلامي من تلك القشرة التاريخية التي مضت فوضعته في ظلام الحاضر.

إن ما يفسر سوء فهم فكر بن نبي لدى المسلمين أنفسهم أنهم منخرطون رضاً منهم أم اضطراراً بالنماذج الغربية يستجيبون لها إغفاءة بل

وخمول من يستفيق من خدر النوم. وهذا أيضاً ما يفسر سوء موقف الغربيين، إذ هم معجبون بقوتهم؛ لذا فهم لا يسمحون بطريقة للتفكير تكافح أمامهم ضد تفسيرهم أو مزاحمتهم بما تهدف لاستعادة المبادرة في بناء مجتمع إسلامي. إذ ما الفائدة من ذلك في عالم إسلامي أضحى الإسلام فيه غريباً من عهدة الماضي والفكر الديني تجاوزه العصر؟

ثم إن المسلمين أنفسهم من ناحية أخرى لا يستطيعون قبول فكرة (القابلية للاستعمار) التي تبدو سُبَّة وإهانة لموقفهم، وهم يؤكدون أن الوزر كله يقع على الاستعمار الذي بدأ يلاقي مصيره مع المطالبة بحقوق الإنسان، والتي إذا ما تحققت فسوف تخرجهم من حالتهم المأساوية وتضعهم في المسيرة الإنسانية للتقدم.

كان ذلك هو المناخ الفكري حين كتب بن نبي أطروحته في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين في ظل الأفكار التقدمية والشيوعية التي تدفع المسار في اتجاه لا مرد له: إنه العدالة والمساواة لغير تفريق في الجنس أو الدين.

وقد كان الاعتقاد سائداً بأننا دائماً في الاتجاه المحسوب، إذ يكفي أن نلحق بالقطار عبر مركبة التقدم فيه؛ ثم نغمض أعيننا ونحن نفترش الوهم والخيال.

لذا بدا بن نبي أمام ذلك كله وكأنما هو يحاجز بينهم وبين دوران ذلك التفكير، فغدا أمامهم كحالم يفرض هاجسه على أفراد دينه لكي يحملوا صليب (القابلية للاستعمار).

لكن فكرة (القابلية للاستعمار) في عمق معناها عند بن نبي أكثر أهمية من أن تعدّ ضد أو في مواجهة مفهوم الحضارة؛ إنها تشير إلى عصر تاريخي يأتي دائماً في أعقاب انهيار حضارة ما، لذا فمفهوم (القابلية

للاستعمار) ليس نتيجة لاستعمار يحتل بلداً، بل هو مفهوم مستقل يطرح حالة في واقع اجتماعي مفتوح على الاستعمار، وإن لم يصادف مستعمراً كما هو نموذج اليمن مثلاً كما يقول بن نبي.

هذا المفهوم فتح باب الأمل حين أنار بن نبي سائر زوايا العصر المظلم، فغدا المسار مفتوحاً لزوال قريب حين يدخل المسلمون مرحلة جديدة من الإيجابية. مرحلة بطولية كفيلة لحل أحجية (القابلية للاستعمار) حين تفتح الأبواب لدورة جديدة للحضارة.

فبن نبي إذ يشخُص لنا مرض المجتمع الإسلامي فهو يضع له في الوقت نفسه العلاج حين يحدد موقفنا اليوم بالنسبة إلى ماضينا، وليستعيد دفعة واحدة دوره المستقبلي. فأنا لا أبالغ إذا قلت: إننا جميعاً مدينون لبن نبي، فبفضل دروسه وقر في يقيننا أن المجتمع الإسلامي هو حقيقة هذه النظرة الجديدة التي أفرغت أذهاننا من فكرة الرفض والالتحام بالغرب، أو العودة إلى القبلية الحديثة، كانتماء نسميه الوطنية، تلك الأفكار التي بقينا زمناً طويلاً نختار فيما بينها. لكن بن نبي علّمنا أن نفكر دائماً بوصفنا مسلمين. ومنذ ذلك الحين عرفنا أنه علينا جميعاً أن نبرع ونخترع بامتياز، لكن عبر ما نحضره بأيدينا نحن، ومن أجل دورٍ عظيم ومتجدد. ذلك أن فكر بن نبي هو فكر مستقبلي، إنه أبعد من أن يكون مجرد تفسير ولًى زمانه، لقد أيقظ الأفكار لتوظَّف في رسالة في مستوى المسلمين الأول في المدينة المنورة.

إن أسلوب بن نبي ترك للقارئ ذلك الانطباع من التفكير الهادئ. فهو بالرغم من كل ما عاناه من الموقف الاستعماري ما دام هو مستعمراً من الأنديجن (indigene) فهو لم يترك لقلمه أن يستشيط غضباً وسباً ولعناً حين يكتب ليواجه ويفضح أشد المواقف شراسة وظلماً، أو ليدين الاستعمار ويكشف خبثه. فقد كان قلمه هادئاً متأنياً لكنه هدوء الفكر

المتابع لتطور الأمور ليدرس الحقائق، وليقدر رأيه في وضوح يبنى على إدراكه الفطن والذي لا يمكن دحضه.

تلك مرتبة تمتاز من إنسان ما بعد الموحدين الذي لا يملك السيطرة على فكره إذا ما شاء توصيف الأمور حوله؛ لذا يكيل المديح حين يرى مصلحته فيه، وإلا فهو يغرق في الشتائم؛ ذلك أن قدراته الفكرية مسحوقة ومختلطة وهو يميل دائماً إلى الإيماءة والإشارة والتذبذب؛ لأنه لا يريد أن يفكر، وهو ليس لديه وقت للتفكير.

فبن نبي انتهج طريقاً لم يترك فيه نفسه مستسلماً أمام تعقيد أي مشكلة تتطلب حلاً. ففي أول محاضرة له ألقاها في بداية الثلاثينات من القرن تحت عنوان (لماذا نحن مسلمون؟)، كان العنوان يثير سؤالاً لدى مؤمن بالإسلام الجواب لديه فيه معروف، لكن بن نبي في منهجية رؤيته للمشكلات كان يرغب في الفهم والاقتناع ضمن شروط الاستعمار الذي يباشر حاضرنا والقابلية للاستعمار التي تستجيب لمعطياته.

هذه الأناة في التأمل والتفكير منحت كما أعتقد كتابات بن نبي رغم قلتها، ذلك المقام العالي من قوة الإقناع التي ما يزال وقعها إلى اليوم يباشر إدراكنا، لذا فأنا على يقين بأن القارئ سوف يجد منطقها ومداها في المقالات التي جمعها زميلي وصديقي عبد الرحمن بن عمارة بين دفتي هذا الكتاب. وأما الأحداث التي تعالجها هذه المقالات فهي ليست سوى نماذج للدراسة، ويبقى منها تلك الفكرة الموجهة التي تتجاوز الحدث والترتيب بين صفحات الكتاب في عناوين (أممي - بين الأمم - ثقافة...إلخ) عناوين لا ينبغي لها أن تجرنا إلى الوقوف على ضفتي أحداثها دون الإبحار في مجرى نهرها الفكري.

ثلاثون عاماً بعد غياب معلمنا الذي علمنا الفكر، رحمة الله عليه مرّت وها هي الأوهام التي راودت من قبل قد سقطت، أما (الكابوس)

أي: القابلية للاستعمار الذي ألقى بثقله على أوهامنا الحالمة في المراهنة على أفكار التقدم التي أشرنا إليها فإنها لم تكن سوى دعوة إلى ما كان ينبغي التفكير فيه منذ البداية، فسقوط الشيوعية وتحطمها المريع ترك المكان صافياً والأفكار الإسلامية أضحت تُرى بوضوح أكبر؛ ذلك الفكر الذي ناضل وبقى حتى اليوم في حلبة الصراع الفكري.

لقد أغلق القوس على معترضة الشيوعية في مسارنا، وعاد العالم إلى الحالة التي كان عليها عند وفاة الرسول صلى الله غليه وسلم: المسيحية - اليهودية - الإسلام. لكن المسلمين من العالم الجديد ليس لهم أيما دور.

فتأخر البنية الفوقية عن البنية التحتية هو السبب في فوضى العالم الحاضر. وهذا ما جعل العالم الآن ومنذ زمن طويل واحداً يحكمه الواقع؛ لكن الناس فيه لم ينجحوا حتى الآن في إعطائه روحاً من السخاء الإنساني في المصالح الخاصة لتشمل الناس جميعاً. إنه لا يزال خاضعاً لسلطان النزعات القومية العنصرية القديمة، إذ ينأى تحفظها وإحجامها عن اتخاذ أي موقف ينحو نحو الأكثرية في العالم. فالتوتر بين الثقافات الكبرى ما زال يتفاقم، لذا فالوقت يضيع. والأوهام ما تزال تلقي المسلمين خارج الإمساك بزمام مصيرهم.

ومرة أخرى نقول: إن ذلك ليس من خطأ الآخرين، ذلك أنه ليس من المفيد أن نلقيَ بالمسؤولية على شعار آخر فنرفع شعار الاستعمار الجديد؛ إذ الوقت ما يزال يتيح للمسلمين التأمل بدم بارد كي يعترفوا بأنهم اليوم ما زالوا جيل عصر ما بعد الموحدين، وأن يفهموا بأن المجتمع بغير مرجعية له من تراثه لا يستطيع أن يكون مجتمعاً فاعلاً.

العالم يعود اليوم كهيئته عند وفاة محمد ﷺ. وهذا يؤدي بداهة إلى جملة أشياء:

**أولاً:** لأول مرة في التاريخ وعبر دين موحى به أنشأ المسلمون حضارة.

**ثانياً:** عند مجيء الإسلام عام ٦٢٢م كانت المسيحية مقتصرة على نوع من التصوّف والرهبنة في دير أو في صومعة تعيش على هامش المجتمع الخاضع لسيطرة ثقافة الإمبراطورية الرومانية وهي شبه محكوم عليها بالزوال.

**ثالثاً:** إذا كان ظهور الإسلام قد أضرَّ بالمسيحية، إذ أفقدها المهد الذي ولدت فيه، فقد وضع لها نموذجاً لتقليده. فالإسلام نفى المسيحية إلى الغرب لكنها حملت معها في حقائبها طوق النجاة، ذلك هو درس الإسلام. إذ حملت في أحشائها عنصراً إسلامياً أمكن معه الحديث عن شيء إسلامي مسيحي. وغدا كل تحسس أو شعور نحو الإسلام هو نتيجة لما قدمنا أنه المحرك؛ إذا لم يكن للمسيحية فعلى الأقل للكنيسة. لذا يمكن لنا أن نؤكد بأن ظهور العالم الحديث قد بدأ مع مجيء الإسلام الذي تم التعرف عليه شيئاً فشيئاً.

**رابعاً:** المسيحية التي ولدت قبل الإسلام تطورت بوتيرة جد بطيئة؛ لأن ظهورها الأول كان ضعيفاً مقارنةً بظهور الإسلام الذي حمل المسلمين في بضع سنين إلى حدود الصين في الشرق وإلى إسبانية في الغرب. وبالرغم من أن الإسلام الذي هو الأخير ظهوراً بين الأديان الثلاثة فقد كان الأول الذي أسس حضارة، وذلك ما تشير إليه أحد المعاني الممكنة للآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

**خامساً:** إن المسلمين اليوم وهم على عتبة حضارة إسلامية ثانية سوف تؤسس لوعد الإسلام الكبير. إذ ثمَّة دورة ثانية للحضارة ترهص بها التطورات يعود الإسلام فيها لتحقيق وعده العام، بما أثبت من مسار قادر على احتواء الحضارة الغربية، إذ سبقها فاستجابت منطلقاتها لإنجازاته

الحضارية؛ وغدا الإسلام قادراً على أن يحتوي المسيحية في النهاية وليس العكس كما تدل مراحل التاريخ.

وهكذا نرى كيف أضاءت دروس بن نبي لشعاع جديد في تاريخ البشرية.

إن علم الاجتماع الرسمي المسيطر لم يكن مستعداً للسير من نقطة الانطلاق البنّابية التي هي في خلاصتها جوهر الفاعلية. وليس ذلك بسبب رفض فرضيات بن نبي الأولية التي وضعها، بل بسبب نوعية القيود المحلية التي تجري فيها الدراسة والتي تطبع الأفعال الاجتماعية بمناخها معزولة عن أي رابط يربطها بمعامل Coefficient يحدد مدى فعاليتها الجوهرية. فعلماء الاجتماع الغربيون هم كالمفكرين المسلمين اليوم يغرقون في المناخ كأنما هو كائن أبداً؛ لذا فهم يخافون بدون شك من اتهامهم بأنهم ينهجون المنهج الأخلاقي إذ يدرسون وليس المنهج الاجتماعي؛ فيما الأمر يتطلب، منهم دراسة آلية الحياة في حضارة ما عبر المنهج العلمي وليس دراسة نتائجه الأخلاقية.

فالطبيب الذي ينصحك بالتوقف عن شرب الكحول لا يفعل ذلك لاعتبارات أخلاقية حين يحذرك من النتائج الخطيرة لشرب الكحول، والأمر نفسه لدى علماء الاجتماع الغربيين إلا قليلاً منهم فإنهم يرفضون الاعتبارات الأخلاقية حين يقررون المنهج العلمي لدراستهم. ويتركون للسلطة السياسية أن تسد هذا النقص في التحليل عند فرض إجراءاتها.

هذه الحالة السياسية لم يكن من الممكن وجودها مع عصر ابن خلدون، وبسبب أولي مع مالك بن نبي الذي يعيش في مجتمع السياسةُ فيه أخلت مكانها منذ عدة قرون للبولتيك.

إن جوهر السلطة السياسية في مسألة الديموقراطية واجهها بن نبي بالروح نفسها. فليس الشكل القانوني للسلطة هو الذي يجب تحديده، بل

الثقافة التي هي مناخ وليست علماً، فنحن نلاحظها بسهولة في الغرب حيث الملوك والأميرات يجلسون سوية مع رؤساء الجمهوريات دون أن تكون الديموقراطية موضع نقاش سواء في هذا النظام أو ذاك.

إن ثلاثين عاماً مرت نرى من خلالها كيف أن التعليم الجامعي قد مني بكارثة في مرحلة ٦٠-٧٠ حين ضلَّ الطريق. ولم يكن ذلك لانتمائه الماركسي الذي فشل. فالأساس السليم لمنهج بن نبي هو في التأكيد على أن العلم ليس سوى إنتاج حضارة وليس سبباً لنشوئها، ويؤكد ذلك نقده المعرفة الغربية للمرحلة التي تسمى ما بعد الموحدين. إذ أثبت أن العلم وحده لا يكفي لتحسين وضع المجتمعات الإسلامية كما لم يكن كافياً في عصور ما بعد الموحدين، إذ العلم لم يمنع من السقوط بالرغم من تميّز وعبقرية ابن خلدون، بل إن الوضع في عصره تفاقم، وهذا ما اختصره بن نبي بقوله: لقد كان في ذلك العصر ابن خلدون لكنه لم يستطع أن يوجد خلدونيين، فابن خلدون مارس دوراً نوعياً هو دور المُصَفِّي لتركة الحضارة. ذلك أن المجتمع الإسلامي الذي أنتج ابن خلدون لم ينتج أبداً كباراً من نوع آخر سواه، أي كباراً في علوم الطب، أو في الفلسفة، ولا كباراً في الاجتهاد، وهي مهمات تتداعى مجتمعة عبر عالم واحد كابن رشد كنموذج لعصر الموحدين.

لقد أتيحت لي الفرصة لأضع بالموازاة رؤية لمستشرق وفيلسوف مشهور هو (هنري كوربان) حيث أن إنتاجه العلمي لا شك جدير بالتقدير. هذا المستشرق لاحظ أن الفلسفة ماتت لدى المسلمين بعد ابن رشد، وهو محق إذ ينظر إلى الأمر كفيلسوف لا يخرج عن نطاق اختصاصه، لكننا إذا قيَّمنَا هذه الرؤية في المنطق الأوسع، فالمجتمع الإسلامي في الحقيقة لم يصب بالتصحر في الإطار الفلسفي فحسب، بل أمحل به الإنتاج في كل مجال، فلم يعد هنالك مجتهدون وفقهاء مجيدون،

ولا أطباء كبار، ولا محاربون جيدون، ولا سياسيون محنكون... إلخ لقد أصيب المجتمع بالمرض في كل أمره وبالشلل فجأة وبغير سابق إنذار.

من أجل أن أكمل ملاحظاتي حول هذا الموضوع دون إضافة، أقول: إن كوربان الذي لم ينظر إلى الموضوع من خلال بحث مشكلات الحضارة الإسلامية التي سوف يسميها مالك بن نبي: «محور طنجة - جاكارتا» فقد حاول أن يضع إيران في مواجهة العالم العربي الإسلامي مستدلاً على ذلك باستمرار العمل الفلسفي فيها بينما كانت المناطق الأخرى من العالم الإسلامي خالية نهائياً من أي جهد في هذا المضمار.

هذا النشاط إذا كان قد امتدَّ لبعض الوقت في إيران فذلك يفسّر استمراره على وجه الخصوص بفضل التأثير الذي أعطته مدرسة المعلم الأندلسي الكبير ابن العربي الذي شعر بأن الأندلس حيث ولدت المدرسة لم تعد أرض استقبال لمشروعه فيمَّم وجهه شطر المشرق، حيث استطاع التحول نحو تلك الأرض القديمة التي غدت له الملجأ الأخير. هذا الحضور العارض للفلسفة المهاجرة، لم يمنع إيران من أن تواجه مصير التصحّر الأخير للمجتمع الإسلامي.

كوربان كان حسن النية، لكنه لم يكن فيلسوفاً في التاريخ، لذا لا يستطيع أن يفهم أن المجتمع الإسلامي أنتج ابن سينا في إيران؛ لذا لم يكن من الضروري إنتاج ابن سينا آخر في المغرب وبالعكس، لم يكن من الضروري إنتاج ابن رشد آخر في الشرق. إذ لم يكن يقتضي الأمر المزاحمة والمنافسة بين الموفقين في العالم الإسلامي، بل كان يقتضي التكامل. يأخذ كُلٌّ العمل من النقطة التي يكون السلف قد تركها ثم يحاول حل مشكلاتها في إطار وحدة التراث ومرجعيته الحضارية.

(هذه ما بعد الحداثة الغربية) إذ نضعها بالمقارنة مع ما بعد عصر الموحدين، فذلك ضوء كبير يعلن نهاية كل شيء. نهاية التاريخ؛ نهاية

العلوم الاجتماعية؛ وأخيراً نهاية العلم باختصار. كل هذه النهايات تؤكد صحة التوقعات البنّابية على أساس أن العلم هو إنتاج الحضارة، وليس سبباً لها. فالعلم المكدس عند الغربيين ليس يعني أنه أصبح بغير فائدة، بل هو سوف يأخذ طريقه من جديد عبر آخرين في المستقبل عبر دورة حضارية جديدة.

وإذا كان علم أرسطو لم يمنع من انهيار اليونان فكذلك العلوم التي أنتجها المفكرون المسلمون لم تمنع الانهيار؛ ذلك كله يعيدنا إلى نقطة الانطلاق الأولى؛ إلى نقطة الأصل أي العوامل الثلاثة المحركة لمسار الحضارة: الإنسان، التراب، الوقت. وإن الإنسان وحده الذي يمنع سقوط المجتمع وليس العلم إذا ما وصل الى درجة ما. ففي المنهج البنّابي فالعلم هو بقدر ما يساهم في الثقافة التي تتجلى في أربعة مظاهر هي: المبدأ الأخلاقي L'éthique، المبدأ الجمالي l'esthétique، المنطق العملي logique pragmatique والتقنية la technique، وهنا تدخل العلوم في المرتبة الرابعة التكنيك، فابن نبي يحب أن يعطي مثلاً لعدم فاعلية تلك المرتبة الرابعة من عناصر الثقافة حين يكون العنصر الرابع (in abstract) أي دون رابط له مع العناصر الثلاثة الأخرى. فالجزائري يستطيع التخرج من أكبر مدرسة للهندسة أو من أكبر كلية في الطب باريسية، وأن يكون الأول على دفعته، ولكنه يبدو بغير فاعلية كلية إذا وضع في مجتمع غير متحضر. وذلك لأن القيمة التي أضافها في هذا المجتمع بسبب رتبته العلمية مشروطة في مجملها بالعناصر الثقافية الأخرى للمجتمع الذي أولاه هذه القيمة المضافة. فإذا ما عاد إلى مجتمعه ولم يجد الشروط الاجتماعية نفسها فإنه سيصاب بمعامل المقلل Coeficient réducteur الذي ينتهي أحياناً إلى حد الصفر في فاعليته.

هذا المثل لدى بن نبي يضربه في نقد علم الاجتماع والعلم.

ثم إن بن نبي وفي صفاء فكر لا يرحم تابع وهماً آخر لرجل «ما بعد الموحدين» هو أنه يمكن للحضارة أن تُشترى، وذلك وهم يغذيه «دولار النفط» في دول الصدفة الجيولوجية.

فبن نبي يميّز بين المقدرة التمويلية والمقدرة الاجتماعية. إذ المسلمون يستطيعون بناء مدينة مثل نيويورك ولكنهم لن يستطيعوا أبداً شراء نيويورك. لقد ضرب بن نبي نيويورك مثلاً كنموذج للحضارة الغربية لأن الحضارة بناء وليست تكديساً.

في اللحظات المضطربة والخطيرة التي يعيشها العالم اليوم، من السهل علينا أن نتحدث فنقول بلغة الصحفيين: إن الفكرة البنّابية تبدو لنا أكثر من أي يوم مضى معاصرة، ترسم سبيل خروج العالم كله من أزمته؛ فبن نبي هو أول من استعمل العالموية Mondialisme.

ففكرة بن نبي غذتها المعاناة والألم وبرَّحت الجسد حتى نضجت، تلك كانت حال معلمنا مع شديد أسفنا، لذا فبن نبي قد توحَّد مع المجتمع الإسلامي حين كان هو ضميره اليقظ، فغدت أفكاره تحدث عن نفسه بالذات كموضوع اجتماعي ومن هذه النظرة يمكن القول: إن فكرة المعاصرة في أفكاره هي بقدر ما تكون التجربة حية في الجسم، بحيث لا يستطيع أحد إنكارها.

من خلال هذه النظرة فالتجربة تصبح حينها نوعاً من الصوفية الروحية تعبر عن نفسها إنما بغير هروب من المجتمع؛ لأنها لا تبحث عن سبب خارجها، وهكذا غدت هي العزاء والرسالة لشاهد الإسلام؛ من هنا أضحى التوجيه البنّابي خارج مفهوم المعاصرة حين يرتقي فوقها صعداً إلى غيب السنن الإلهية التي لا تبديل لها لأن الله خلقها.

فالمسلمون عرفوا الله في الرخاء عبر الحضارة الأولى في عظمتها وبهاء إنجازها، وعليهم أن يتعلموا كيف يعرفونه في الشدة في انهيار

المجتمع والتخلف، ذلك أن الله هو إله الزمن يداول الأيام بين الناس، وكل ما يفعله دعوة للعبرة والتأمل.

لقد وقف بن نبي بين الأنقاض حين فقد المجتمع الإسلامي جميع مرجعياته في ضبط مسيرته؛ لذا يمكن القول: إن منهج بن نبي يتطابق مع المنهج القرآني كما جاء في الآية ١٤٠ من سورة آل عمران ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾.

فمن هذه الآية الكريمة يؤكد بن نبي على تلك السنة الإلهية التي هي قانون عام يحكم الدورات الخاصة بكل حضارة، ثم إن الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ تمنح الناس فرصة مراقبة أعمالهم حتى لا يفاجئهم المصير المحتوم الذي يدخّره التاريخ من آلام الانحطاط وسوء الأداء.

هكذا يضع بن نبي للانحطاط والتخلف نذيره الإلهي؛ إذ تبرز الحقيقة الإلهية للقرآن الكريم برهاناً ليس فحسب على صدق الوحي كما فعل في كتابه (الظاهرة القرآنية)؛ بل على صدق الحقيقة الإلهية للقرآن الكريم نفسه حين يقرر مآل الأشياء والمجتمعات والناس في إطار السنن الإلهية.

لقد أحيا بن نبي الحقيقة القرآنية نفسها في ظل سبات من غفلة المجتمع، وفي غمرة تلك المراجعة الروحية وضع بن نبي أسس استجابة حاضر المجتمع الإسلامي لمرجعية القرآن الكريم في بناء الحضارة من جديد، وهو بذلك يحرر إنسان ما بعد الموحدين مما علق به من أوضار التخلف ليطير عالياً فوق القمم، حيث تعيش الأرواح الكبيرة في الإسلام بسلام.

لقد أسست أعمال بن نبي قاعدة انطلاق جديدة لدورة حضارة إسلامية جديدة؛ لا يمكن من دونها لعمل جدي أن يأخذ طريقه، وهكذا نردد أنشودته الأولى في كتابه شروط نهضة.

ولكن شمس المثالية ستتابع سيرها دون تراجع، وستعلن قريباً انتصار الفكر وانهيار الأصنام مثلما حدث يوم تحطّم (هبل) في الكعبة.

## المبحث الثاني

# مالك بن نبي
# ومستقبل المجتمع الإسلامي

إن مسار بن نبي الفكري بوصفه عالمَ اجتماع؛ قاده لاجتياز مراحل ثلاث هامة؛ تستجيب في أساسها لمراحل حياته، لكنها تفسر هي أيضاً نقاطاً ثلاثاً مختلفة تعكس في الوقت نفسه نظرات ثلاث نحو العالم، تجلت شيئاً فشيئاً؛ لكن من خلال رؤيته لتطور ما حوله من الأشياء؛ وحينما بدأت الأحداث تؤكد دقة توقعاته غدت رؤيته أكثر عمقاً في كل ما يتصل باتجاه العالم ومستقبله.

فالمرحلة الأولى: كانت في نظرته إلى نفسه، تلك النظرة التي حددت حالته وهو مستعمَر، يواجه حضور المستعمِر الذي لا يبدي أي رغبة في احترام حالته هذه؛ بل على العكس؛ يعلن من دون تردد عن نية بتدميره بغير رحمة.

المرحلة الثانية: توجهت نظرته فيها نحو الوسط الذي يعيش فيه؛ وقد وسع إدراكه لمشكلته كنتيجة لقابلية اجتماعية تستدرج الاستعمار نحوها، وهذه ظاهرة جديدة في التاريخ تبدو واضحة أحياناً، وأحياناً تصبح ضرباً من التغريم وطرد الأرواح الشريرة.

فبن نبي نظر بإشفاق إلى المستعمر؛ ومن هذا الجانب كانت لديه شجاعة ومبادرة لينظر ويؤكد أنّ المسؤولية عن شر الاستعمار مزدوجة، وليس كما هو الظاهر، وعلينا نحن وحدنا أن ندفع الثمن، إذ عنفوان المسلم يأبى أن يجعل من نفسه ضحية.

المرحلة الثالثة: تتجه نحو الخارج حين ينظر إلى المشكلة في مستوى مصير واحد؛ إنها مشكلة الإنسانية جمعاء؛ إذ مصير الإسلام ومصير الإنسان على قدم المساواة بينهما؛ وهذه المزاوجة الإنسانية في مستوى الكرة الأرضية تدل على أن الشعوب على اختلاف موقعها تلقى المصير نفسه في الرخاء كما في الشدة.

وهكذا فإن فكرة بن نبي تدرجت شيئاً فشيئاً في المناخ الثقافي في الجزائر أولاً نحو الاجتماع التطبيقي؛ لتدلف منه إلى الاجتماع الشمولي، أي علم اجتماع غيبي الأسباب؛ ينظر للتاريخ كنتيجة لمسار روحي لا تفسير له، ونجد هذا الاتجاه في مقال بن نبي تحت عنوان (الغيبية الاجتماعية الاقتصادية).

فالتاريخ يفسر الأمور من خارجها؛ لكنه في أثناء سرده يقدم لنا مفاتيح تسمح عبر حركته أن نستبين الغاية والهدف. هذا الهدف ليس سوى تحقيق الوعد الإلهي بنصرة الحقيقة في النهاية.

فقانون سلامة الإنسان عبر المخلص هو دائماً «Sotériologie» مهمة الترابط مع الحركة نفسها في التاريخ؛ لأن الإنسان يتجه دائماً نحو السلامة.

ويمكن القول: إن رؤية بن نبي وقد أطلقها من علٍ قد اتسع نطاقها وعمقها. فكل قارئ متابع لبن نبي لا يستطيع إغفال الشعور بتاريخية علم الاجتماع من خلال مقارباته الفكرية حيث عرف أستاذنا كيف يعبر عنها ويسلط الضوء على العلم الغيبي.

لقد آمن بحقيقة الإسلام التي دفعته إلى التأمل الاجتماعي في نظرته الثابتة والمدركة بما يحتويه هذا الجسم الإنساني حين يكون صالحاً أو سيئاً؛ بقطع النظر عن الأدلة والحجج التي كتبها الفقهاء أو رسختها عقلانية الفلاسفة.

ومن خلال نظرة استقرائية فإن ترتيب المقالات التي جمعت في هذا الكتاب اعتمد الترتيب الزمني منها؛ وهذا هو الأجدى من ترتيب الكتب السابقة، إذ هذه الطريقة أتاحت لنا بشكل أفضل دراسة اللحظات التي اتفق أن أوحت ببعض الأفكار من أجل إبراز تطور الفكر البنّابي وبالخصوص منذ عام ١٩٦٧، ولهذا السبب فإن صديقي «عبدالرحمن بن عمارة» الذي طبع هذه المجموعة رأى من المفيد أن يضع في نهاية الكتاب ترتيباً للمقالات طبق تاريخ كتابتها.

وهكذا فإن فكر بن نبي الغيبي ما يزال يضيء زماننا، ويمنحنا آلة تحليل لمجتمع عشنا فيه ثلاثين عاماً بعد موته.

إن الحديث عن مستقبل ما للعالم الإسلامي يرتكز بدقة على النظر في كيفية تفعيل التجربة البنّابية لنختصر الطريق التي ستقودنا بالسرعة الممكنة إلى المرحلة الثالثة؛ أي تلك التي تستطيع أن تلعب دورها كمحرك في العالم.

## المفهوم الغيبي عند بن نبي

يعزل بن نبي الدجل والشعوذة والمرابطية التي استعارها المستعمرون ليشيروا إلى ما يعتقدونه بأنها هي الغيبية الإسلامية، يعزل ذلك كله عن الروحانية الأصلية كمعايير ذات خصوصية هي الأكثر مطابقة للحقيقة. فحين يثير بن نبي المفهوم الغيبي أو الروحي فهو يثيره دائماً في المضمون الاجتماعي. أما المضمون الغيبي من الزاوية الفقهية التي أرساها الأساتذة

الكبار في الإسلام فهو خارج اهتمامه رغم ما يبدي لهم من احترام كبير، وقد أشار في ذلك إلى كتابات Guenon التي يتسم بالمشقة من أجل فهمها على سبيل المثال. أو إلى أحجية ابن عربي.

وكما سوف نرى لاحقاً؛ فقد لاحظ بن نبي كعالم اجتماع الشكلَ المتردي للمفهوم الغيبي الإسلامي حين رآه فاقداً لأي فاعلية اجتماعية، وقد انتقدها في مجمل ما انتقد من مجالات مختلفة في المجتمع الإسلامي فاختصرها جميعاً ضمن مفهوم الذرية؛ أي إن شبكة العلاقات الاجتماعية قد تقطعت صلاتها وانهدم بنيانها وانحل رباط عروتها الوثقى.

كان هذا كله مساحة نقده ومعيار تحليله دون الاعتماد على فقه التراث الذي تركه لنا الأساتذة العظام.

ومن هذه الزاوية كان نقده للجهود التي قام بها العلماء الجزائريون، فرفض بحزم أن يطلق على فكرة الإصلاح الجزائري Réformiste Musulman أي تلك التي تترجم المعركة ضد غيبة الإمبراطورية السفلى (لما بعد الموحدين)؛ إذ من المعروف أن هذه الفكرة ظلت تابعة في مرجعيتها الأساسية حين أضحى العالم الإسلامي خارج حضارته (لما بعد الموحدين) رغم شعار الإصلاح الذي رفعته حين وضعت نفسها في ظل فقه انتقده بن نبي في مقال سنتحدث عنه.

فالعلماء في انتقادهم للمرابطية لم يكونوا محركين المجتمع بالاهتمام نفسه الذي اهتم به بن نبي؛ فقد جاء عقم حركتهم حين طرحوا الأمر ضمن فقه تقليدي يقارع فقهاً آخر هو الصوفية التقليدية.

فبن نبي برز في مقاله (محمد الصادق) وفيه نبض من عرق كبار الفقهاء؛ فقد كتب صفحة لو أن قارئاً لم يقرأ لبن نبي سواها لوضعه في صف ابن عربي.

فبن نبي بقلمه كان شديد الوضوح في التفريق بين وجهين: «وجه الرسول يتجه ليخاطب الناس، ووجه الصفاء الروحي الذي يتجه نحو الله» وهذا يختصر الإشكالية كلها بين قدسية الولي ورسالة النبي ذات المضمون الاجتماعي.

فالملاحظات الاستطرادية إذا صح القول حول علم الفقهاء وفعل الروح العلوية يتلازمان في إطار هذا الشعور، حين تبرز رجلاً يضع الأسئلة الحرجة التي تقلق الروحانية الإسلامية.

فإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار ابن عربي (توفي عام ١٢٣٠م) وبن نبي توفي عام ١٩٧٣م باعتبار كل منهما الأكثر تمثيلاً لأسلوبهما الخاص فإن ذلك يضعنا في مقارنة جد بناءة بينهما في الأفق التاريخي.

ولد بن عربي في إسبانية في الفترة التي يطلق عليها (ما بعد الموحدين)، في مجتمع فقد منذ زمن وسائله المادية ودخل نفق الغروب حين غابت شمس الحضارة؛ فآثر النجاة مسافراً في الظلمة وحمل مصباحاً يتلمس به طريقه في الليل، وهو يمسك بحبل الصفاء الروحي للإسلام حين افتقد المجتمع وسائله المادية.

لكن بن نبي كان في مرحلة أخرى عند باب الخروج من النفق، وقد استوى النور في رؤية الطريق فقدم لإنسان ما بعد الموحدين المواصفات التي تَصْنَع الحضارة ليكفر بها الجيل عن تقصير ما مضى من الأجيال ويلحق بدوره مجدداً في التاريخ.

هكذا أنقذ ابن عربي في المحصلة القيمة الروحية التي هي الأساس في الإسلام حين نزع عنها التاريخ وأبقى لها الاستمرار في الروح الجماعية؛ إذ التاريخ يدين بقساوة، ولا يتسامح أبداً مع الذي يلعب؛ دَوْراً أو يحتل مكاناً، ثم تغيب الفاعلية عن حركته، لذا تركت الحضارة

مكانها في التاريخ لحضارة أخرى تدق بقوة على بابه، وتنتظر دورها؛ إنها الحضارة الغربية.

ابن عربي إذن وضع الإسلام في مدار لا يطاله الزمن التاريخي، وهكذا أصبح خارج مرمى الأفكار التي يداول بها الزمن سنن التاريخ. لذا بقي خارج الزمن التاريخي ومخاطره.

ومع ذلك فمذهبه لم يغب عن شهوده في المستوى الداخلي، وهكذا غدا كل ما هو خفي مشاهد، وكل ما هو مشاهد مجهول (في مستوى المعاصرة التي كانت قد توارت منذ سقوط آخر خليفة عباسي) فابن عربي حفظ مستقبل فكرة الإسلام لعصر قادم حينما فقد الإسلام ذراعه التي تتعامل مع مسيرة عصره.

أما مالك بن نبي فقد لعب دوراً أيقظ الإسلام من السبات كي يفرغ لدوره الاجتماعي أي في مستقبل العالم.

هكذا قام كل من ابن عربي وبن نبي بدوره، فالأول وقف على باب الدخول إلى النفق، والآخر أطل من باب الخروج منه فحق لكل منهما دور: الأول أيقظ المعرفة بعمق الروح والثاني أيقظ الإرادة في الإنسان، فكان الأول يعمل من أجل الإسلام والثاني من أجل المسلمين، وهنا تلاقى الطريقان: الطريق الأول طريق التَّجَلّي الإلهي، والثاني طريق الفاعلية الاجتماعية التي هي في النهاية المعيار السياسي في معركة المجتمع.

فالعمل في الفاعلية الاجتماعية لا بد أن يتحرك ضمن معطيات الحقيقة المتعالية حين تتجلى في الإمساك عن الرغبة والطاقة الغريزية والهوى بكل فاعلية، وهذه كلها تعني اقتحام العقبة، ذلك العمل المتصل بفاعلية الأداء ورسالته نحو العلاء والعظمة؛ لأن البطولة في الإسلام تتجلى دائماً في مستوى العظمة الإلهية، أي التخلق بأخلاق الله، والعمل

بوصايا الله في إنجاز روحي؛ فالنبي قال ذلك بوضوح: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فعبر هذا النموذج الذي تحددت معالمه يكون هنالك الرسول، والمعيار هو التأسي ورياضة النفس والتكيف وما يوطئ الأكناف.

في هذه النقطة سوف نجد في كتابات بن نبي النماذج الوافرة.

وإذا ما تساءلنا بعيداً عن هذا التحليل وطرحنا ذلك التعارض بين نموذجين: الرجل الصالح أم الرجل الصالح الفاعل فإن خيار بن نبي دائماً كان مع الرجل الفاعل، لذا كان أبطاله دائماً في إطار هذا الأخير: إنهم المسلمون في المرتبة الأولى:

أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وسمية لكن معياره يأخذ بُعده الشمولي الإنساني فيصل إلى غير المسلمين في روحانية الأداء في سائر التقاليد كما هو في سائر الأديان. فهناك المهاتما غاندي طبعاً رجل اللاعنف كما هو رومان رولاند، ولكن يضاف إليهم أولئك الذين يحتويهم معياره الروحي دون أن يشعروا به أمثال «ماوتسي تونغ ولينين......إلخ». فلكل هؤلاء الرجال إشارات إليهم مختصرة وعابرة في كتبه، لكنها صحيحة بصورة حاسمة غير ملتبسة بأي مجاملة صحفية أو مديح.

لقد استعاد بن نبي عبر هذا الأفق روحانية الإسلام. هذه الروحانية التي بقدر ما كانت عاملاً اجتماعياً مؤسساً لوجهة أو اتجاه كانت تتلاءم فيه نشاطات الإنسانية كمفهوم روحي.

ففي فترة ما بعد الموحدين فإن الإيمان والروحانية افتقدتا إرادة التواصل الاجتماعي، وهكذا تفتتت إلى ذرات بحيث لا تظهر عبره وجوه إلا كشهود تقف وسط الأطلال منفردة؛ لأن الروحانية الإسلامية انسحبت من العالم.

هذا المصير لم يكن هو المصير الأوحد للمفهوم الغيبي، بل إنه ينسحب على جميع النشاطات الفكرية للمسلمين؛ فالتراث المكتوب يشهد اليوم لأولئك الذين كتبوه منذ ستة قرون أو يزيد؛ وهو لذلك لا يحرك فينا باعثاً نعالجه بكل طاقتنا، لأننا لا نملك مسبقاً أي تصور نبحث عنه فيه.

وهنا ينبغي ألا يخدعنا الاعتقاد بأن الكتب تقود العالم... إذ حين لا تُقرأ الكتب بروح من الحيوية، وإذا كانت المراجعة الداخلية من العلماء لا تقود الناس ليستخرجوا منها سبيل رشادهم في حياة طيبة، فإن الكتب ستكون مصفوفة في الخزائن تشبه العظام النخرة، يبحث عنها عالم الأركيولوجيا بين الرماد دون أن تحدثه بشيء.

فالكتب لا بد أن يخطها مؤلفوها لكنها تفقد معناها إذا لم نكن نقرؤها باهتمام وإدراك لدورها. حينئذٍ فأفكارنا تحتاج إلى حَجر صحي للتخلص من فيروس الكسل الفكري.

لهذا السبب نعتقد أن المفهوم الروحي الغيبي لدى الفكرة البنابية يقترب من «Thumos» الشجاعة، الثقة بالنفس لدى أفلاطون. وهو نوع من استلهام معالي الأمور والإنجاز البطولي في مخطط رئيس؛ فعبر Thumos يتجلّى ما يميّز الإنسان من الحيوان. وإذا كان الإيمان الإسلامي هو الأفضل دون شك، فإن الإيمان لا يضع في جميع الحالات مشكلة لحلها؛ بل هو الطاقة البكر والقوة التي تجري في قنوات الفاعلية. لذا فالتخلف عن معالي الأمور هو عقاب البقاء في هامش الأيام لغير أثر نتركه وراءنا، وهكذا تسفنا رمال الصحراء كتلك «الديناصورات» التي طواها الزمن في أرضها.

فالرغبة الغريزية حينما تستحوذ وحدها تصبح الأساس الجامع بين الإنسان والحيوان، وهذا الخطر استشعره فوكوياما في مجتمع الغرب،

حيث قال: «عند نيتشه فالإنسان الديمقراطي يمتاز بخلفية مؤلفة من الرغبة والعقل ولديها مهارة إبداع مسوغات خادعة ترضي رغباته لحساب أنانيته، لكنه في النهاية يفقد العظمة المطلقة للشجاعة والثقة بالذات Mégalotumia ويرضى بسعادته القاصرة دون أن يعتريه شعور بالخجل من استكانته لرغباته «فرنسيس فوكوياما (نهاية التاريخ) صفحة ٣٤٠».

فغياب فاعلية الطاقة عن مجراها يعني الخروج من الحضارة، وهذا هو معنى ما نقصده «بمسلمي ما بعد الموحدين». فالمسلمون أصيبوا بتراجع في المادة (أي قوة الإنتاج). كما أصيبوا بتحلل الشخصية (في الجانب الروحي)؛ لذا ففي هذه المرحلة لم يستطيعوا سوى إنتاج لصوص صغار فيما بقي اللصوص الكبار في الغرب يبدعون ذاكرة تصلح كروايات في الأفلام على سبيل المثال.

فالشجاعة والثقة بالذات أي Thumos قوة محايدة، وانصرافها إلى فعل الخير يؤسس لمفهوم الأخلاق.

افْعَل الخير؛ ذلك عمل أخلاقي، لكن حين تضيف إليه كلمة طيبة تعبر عن احترامك لقيمة من تفعل الخير معه، فذلك الخير الأسمى في قيمته الروحية؛ تلك القيمة التي تتجلى في شعار البطولة والتضحية «اطلب الموت توهب لك الحياة.» وذلك هو أقصى فاعليتها في مسيرة الحضارة.

لهذا السبب ينبغي أن نبدي تحفظاً في اعتبار نقد المرابطية نقداً للروحانية الإسلامية؛ إذ سيكون ذلك إهانة لبن نبي لو نسبنا إليه مثل هذا التحليل.

فبن نبي انتقد جمعية العلماء الجزائرية حين اقتصر نشاطها على مجرد ترداد ميكانيكي، لذلك الذي قيل في الماضي وانتقل إلينا مع الأسف عبر الكتب أكثر مما انتقل عبر السلوك.

وانتقد بن نبي كذلك الثقافة الإسلامية لما بعد الموحدين في سطحيتها وليس في جوهرها؛ كالموسيقا الأندلسية، ذلك الفن الذي كان في أصابع المؤسسين القدامى يستحق بكل تأكيد مقامه الرفيع، إنما أصبح ما بعد الموحدين مجرد رتابة إيقاع لغير نهاية فارغاً من كل تطور في الوسيلة أو في الأداء.

وانتقد بن نبي كذلك التجارب الإصلاحية دون أن يشكك بحسن نوايا العلماء، بل في دقة تحليليهم للمشكلات.

ونحن اليوم نرى قضية تجديد الفكر الإسلامي توضع في إطار البحث عبر الكتب على طاولة مجمع أكاديمي، فيما التحديد ليس قضية كتب بل هو قضية حضارة. فبن نبي يرى أن تجديد الفكر الديني لا بد أن يستجيب أولاً وقبل كل شيء لما لدى المسلمين من سلوك متجدد تتزاحم عبره الحلول لتتسارع إلى مشكلاتها، سواء كانت تتصل بالفكر الفلسفي أو الديني أو كانت تتعلق بالموسيقا أو في تذوق الأشياء.

فإذا كان تناول الطعام في البلاد الإسلامية، على سبيل المثال، سيئاً فالنظر لا يقتصر على هذا الجانب، لأن المشكلة بادية في جميع مستويات الحياة الاجتماعية والفردية.

فبن نبي آمن بالوحدة الجوهرية للإسلام، ومنها كان إيمانه بقدرة الإسلام على أن يجدد بناء كل شيء مهما كان شأنه ومرجعه، ولذلك كان أبعد ما يكون عن تقطيع المشكلات ليعالج كل قطاع مستقل عن الآخر، ومن هنا نفسر رؤيته للمشكلات من وحدة المجال من طنجة إلى جاكرتا وكوالالمبور، وكذلك وحدة المجال بين مذاهب السنة والشيعة. إذ المشكلة عند بن نبي ليست في أصل الإسلام، بل في فاعلية المسلمين. فبن نبي يرى في حديثه عن الفاعلية الروحانية حديثاً عن طاقتها في أرفع

درجات أدائها. فبن نبي كرجل اجتماع انتقد الشكل المتخلف الذي عطل ما كانت عليه الروحانية الإسلامية.

ويمكن لنا أن نختصر هذا الفصل بالقول: إن بن نبي لا يتبنى ومن ثمّ لا يدافع عن أي مذهب خاص بالإسلام. فهو يؤمن أنه بغير فاعلية التعليم والإرشاد لا قيمة لإنتاج يقدمه مفكرون مسلمون. لذا نراه بعيداً عن الدخول في الجدل بين المذاهب ما دام لهذه المذاهب ممثلون أكفاء وقادرون على إعادتها إلى مستواها من العظمة في مجرى الزمن الضائع. لذا نرى جميع المسلمين لأي مذهب انتموا يقرؤونه. ومن هذه الزاوية يمكن مقارنته بابن عربي الذي يبدو إنتاجه صالحاً للجميع حين يرتفع فوق الجدل ويبعث على الهدوء ويبدد الكراهية والضغينة.

فبن نبي يرى الصيغ الخاصة للمذاهب في الدين تظهر عموماً وتختفي تبعاً لدورها في تطور الفكر والإرادة السياسية. فالنظام السياسي يفرض بسلطته المذهب الذي يتولى التعريف بالإسلام، فالوهابية في العربية السعودية أو الشيعة في إيران بنيت على كل منهما الاعتبارات السياسية التي ليس للفرد فيها كلمة تقال. لذا لا ينبغي لأحد أن يقف في افتخاره على حدود تلك الصيغ الشكلية التي تعود لبدايات الحضارة الإسلامية والتي غدت قيداً يثقل في النهاية كاهل الحيوية الإسلامية.

إذ حين يستعيد المجتمع الإسلامي شيئاً فشيئاً ثقته بنفسه فسوف يرى كم كان الارتباط بالشكل والتعصب مضراً وعقيماً.

### الإسلام المكافح

ليس من قبيل المصادفة أن تأخذ الحركة الإسلامية في عصرنا طابع الكفاح من أجل السلطة السياسية، وهذا المنزلق الذي يسمى في أدبياتنا الأصولية يراه بن نبي مرضاً طفولياً ليس لدى المسلمين فحسب، بل في

كل نشاط ينطلق به صاحبه، وهو يعتقد أن بإمكانه تجاوز الفكر والرؤية العميقة. فحين يكتفي بقليل من الفكر فسوف يخوض تجربة إثر تجربة كما هي (المرابطية) التي غدت مرض الروحانية الإسلامية التي تبدو اليوم وهي تستيقظ بعد قرون من خدر النوم، وهي بذلك تشبه النائم، فإن أول ما يراه أمامه هو جميع أعضائه، بينما يزايله النعاس الذي يغشيه أولاً بأول قبل أن يستبين له الأفق، تلك هي الأصولية التي تستدعي أخطاء القابلية للاستعمار فتعمل بغير هدف منظور إلا أن تفتش عن إثبات وجودها، إنها تعمل لتسلط عليها الأضواء دون أن تبالي بحياتها أو القيام بحركة لها ارتباط بالزمن. فالمسلمون، وقد فطنوا إلى تخلفهم، انبعث فيهم حماس يعوض عن قصورهم، لكنه حماس افتقد عناء العمل بالحكمة كما يوصي القرآن الكريم. وهكذا فقدت الأصولية التناغم مع المسلمين فبدأ الانقسام؛ إذ يوحي به أعداء الإسلام، وذلك لميلهم الدائم إلى استعراض حضوره في كل مكان. فالأصولية تختصر شعاراتها بالشرعية الإسلامية، وترى أن السلطة وحدها قادرة على شفاء أمراض الحاضر الإسلامي، فيما الأمر كما لاحظ بن نبي لم يكن كذلك زمن الإسلام وحضارته؛ إذ كانت السلطة والحكم أبعد ما يكونان عن اختصاص الفقهاء الأول. ويتبع ذلك أن في هذا الموقف ما يمس الاستقرار الداخلي بخطر كبير، حين تصبح الدعوة في بلد ما يسود فيه أحد المذاهب الإسلامية تتلخص في وهم الاعتقاد أن حل جميع المشكلات الراهنة سيكون فقط إذا ما انتهجت أصول النصوص واتبعت المذهب المعروف بالوهابية.

ثم إن المشكلة ستتفاقم خطراً بين بلدين أحدهما سُنِّيُّ المذهب والآخر شيعيُّ المذهب، فيرى في كل بلد أن في الاستطاعة حل المشكلة عبر المذهبية؛ كل مذهب يدعي لنفسه أنه الوحيد الذي يمثل الفرقة الناجية في الإسلام.

هذه الحال يرى فيها بن نبي مشكلة نفسية تختفي وراء النزاع حول المشروعية التي تعود إلى الانقسام التاريخي في الضمير الإسلامي منذ صفين، والتي تتمثل في قولٍ قيل ذلك الزمن: «الصلاة وراء علي أحكم، والأكل عند معاوية أكثر دسماً». هذه العبارة قيلت قبل أن توضع المشكلات تحت عنوان أي من الشيعة أو السنة. لقد أبرزت هذه حالة الروح في المجتمع التي بدأت تفقد الصلة التي لا غنى عنها بين الحقيقة التي تتمثل في قول علي والفاعلية التي تمثلت في الأمويين.

فالمسلمون وجدوا أنفسهم في حالة تدعوهم للاختيار فيما بينهما، وكان ذلك بداية الفتنة الحقيقية.

فالفتنة التي انطلقت فيها الأفكار انطلقت عبر السؤال التالي: من نتبع؟. لكن السؤال منذ ذلك الحين كان جوابه في القرآن واضحاً إنه يقول لنا: اقصد الحقيقة عبر الفاعلية، وسوف ترى أن المشكلة حلها هنا؛ وليس في ذلك الانقسام الذي نشأ فيما بعد بين السنة والشيعة؛ لأن علياً كان أمير المسلمين جميعاً.

فبن نبي ركز على تجاوز الانقسام، وذلك بأن نُطِلَّ من فوقه على مساحة المشكلة الحقيقية، وفي هذه الساحة يلتقي بن نبي مع ابن عربي الذي أثرى الأفكار الإسلامية دون الولوج في غريزة الأفكار المسبقة المذهبية؛ ومن خلال هذا الموقف فإن بن نبي جمع حوله القراء في العالم السني كما في العالم الشيعي.

هذه الفكرة تبدو واضحة وتتطابق مع مفكر إيراني هو «علي شريعتي» حين أشار إلى الموضوع الشيعي الصفوي والسني الأموي. ففي الحالتين أصبح المذهب الإسلامي وسيلة لقيام السلطة خارج رقابة الجماهير الإسلامية. فالصفويون اتبعوا المذهب الشيعي لمهمة رئيسية هي تغذية الكراهية ضد العثمانية.

لا شك أن من الواجب دراسة الشريعة الإسلامية عبر أي من المذهبين والدفاع عن الأفكار في الإطار التشريعي، لكن من الواجب أيضاً إذا ما أراد أحد أن يكون تابعاً حقيقياً للإمام وأقرانه من الصحابة الالتزام بالمصلحة العامة كما فعلوا، وليس عن طريق زرع الكراهية ضد الآخرين من المسلمين. هكذا فعل الصحابة الأولون الذين اعتبروا التكفير أمراً صعباً واستثنائياً والبوح به ليس سهلاً، ومن أجل مقاربة أكثر فالمسلمون الموزعون مذهبياً عليهم أن يتساءلوا كيف أن الانتماء لمذهب واحد لم يحل مشكلاتهم الخطيرة والمميتة التي هزتهم.

من هنا يتضح لماذا من طنجة إلى جاكرتا؛ فالمشكلات الإسلامية واحدة سواء لدى السنة أو لدى الشيعة؟ فالأمر إذن لا يتعلق بمدى اعتقادنا بصحة المذهب الذي نتبعه، بل هو بكل بساطة بمدى انسياقنا في مشكلة نفسية وأخلاقية، وهكذا نرى أن الأصالة الإسلامية، وبشكل خاص، لا تكون دليلاً على تفوق المسلمين؛ فالإسلام شيء والمسلمون شيء آخر. وعلى كل منا أن يتأمل في السلطة السياسية حين تفرض صيغاً خاصة للإسلام تفضي إلى شيوع المذهب بحكم الواقع السلطوي فالإيرانيون شيعة، لأن الصفويين اختاروا ذلك؛ وكذلك سكان الحجاز وهابيون تبعاً لاختيار السلطة السياسية لعائلة ابن سعود؛ وكان يمكن أن تكون هنالك خيارات أخرى. من هنا فالذين يطلق عليهم (الخاصة) في كل مذهب أو الفئة الناجية هم الناجون بإيمانهم بقدر درجة هذا الإيمان حين يصدقه العمل والتجربة في سلوكه الشخصي، فالحكماء هم الذين يتميزون بميلهم نحو الاعتراف بما لدى الآخرين من الحقيقة؛ وهذا هو نفسه ما كان علماء المسلمين السنة يفعلونه إذ يقررون بأن أتباع المذهب هو طريق داخلي ليس إلا؛ وهو لا يكتمل إلا حين يصدقه العمل.

زبدة القول: أن الخلافات القديمة قد فاتها الزمن. والمسلمون التاريخيون قد خلفوا وراءهم تلك الخلافات القديمة، فنحن في زمن

آخر؛ إنه زمن عالم لا ينتظر الذين يتخلفون عن ركبه والذين لا يعطون فرصة لمستوى عال من النقاش ينمحي فيه ذلك البحث عن الفرقة الناجية من بين اثنتين وسبعين فرقة.

من هذا الجانب هناك توافق بين ابن عربي وبن نبي، وقراءة كلا الرجلين مفيدة للمسلمين جميعاً، إذ كل قارئ يرى في كل واحد منهما مرآة الآخر؛ فقراءة كلا الرجلين تتجه لرؤية واحدة في الإسلام في قراءة للقرآن لا تحجب الرؤية من حولنا، فعلم الاجتماع البنّابي هو اجتماع له إطلالة شمولية تماماً كما فعل ابن عربي.

## قبل الغروب

كان المجتمع الإسلامي في عصر ابن عربي يسير كشيخ أدركه العجز ويشعر بموته القريب، وإذ هو يدرك عجزه وتخلفه فقد استعاد التأمل بماضيه.

فالرجال والنساء شباناً وشيوخاً كانوا يجتازون البلاد الإسلامية من أطرافها إلى أطرافها بحثاً عن عالم بالله وبالدين، أو معلم يرشد للمعاد الأخروي والسلوك. كان البحث يقتصر إذن على العلماء وعن الحقيقة؛ لذا لم تكن السلطة السياسية تحظى باهتمامهم حين أضحت أمراً مرذولاً لما لقيت من هزائم متابعة ومتكررة من المغول على الخصوص.

كان هناك عصابات، وكذلك مجموعات روحانية يصادفها المرء وهي تنادي بالصوفية من الهند إلى الأناضول؛ ومن الأناضول إلى الهند؛ إلى آسية الوسطى؛ إلى مصر؛ وبالعكس.

فالعزوف عن السلطة السياسية استدعى البحث عن الأفكار؛ فكانت الكتب التي حدَّدَ عبرها العلماء الأسباب التي أوصلت إلى المأزق؛ لأن الأمر في تلك المرحلة كان يتجه نحو ما يرشد إلى الطريق أو يترك وصية

مفيدة. لذا كانت المصنفات والاهتمام بقراءتها كما وردتنا من ذلك العصر، ولم يكن ما تضمنته مجرد كلمة واعظ له اهتمام بإبراز فصاحته؛ إذ الأئمة كانوا معروفين بأفكارهم الروحية التي لها مريدوها الكثر حين غدا المهتمون بالنشاط السياسي قله وموضع ريبة ويفتقدون الثقة.

**الآن Aujourd'hui**

أما الآن فالواجب يدعونا لنعيد إلى أنفسنا - نحن الشباب - الكَلَفَ بالأفكار. وأن يستقر في الأذهان أننا نخرج من عصر القابلية للاستعمار، وذلك يحلنا من الارتباط برجال السياسة، أولئك العلماء الجهلة غير المثقفين الذين ينتهجون ديماموجية الإلهام السماوي، وهم فارغون من كل رؤية سياسية رفيعة. علينا أن نعد أنفسنا لنأخذ دورنا في العالم.

فالشباب اليوم يملكون قليلاً من الأفكار، لأنهم يسقطون آمالهم على رجال السياسة الذين يمنحونهم تأييدهم. فمنذ بداية القرن الماضي طغت في الفكر السياسي اتجاهات سياسية تحت اسم الكمالية والناصرية والبعثية؛ ثم حديثاً الخمينية، ودون أن نبدي أي تقويم ونقد لطروحاتهم في الفكر السياسي؛ فهذه الألقاب والتسميات تعبر دائماً عن رؤية مغلقة في رؤية العالم كما في الإسلام.

على جيلنا أن يكون الأول الذي يبني علاقة وطيدة مع الفكرة الصافية، وأن يبادر بفرح واعتزاز المشكلات الراهنة في قفزة ثورية تتجاوز الجنرال الديكتاتور؛ أو رجل السياسة الذي وصل إلى السلطة بمؤامرة أو انتهاز فرصة.

لقد علمنا بن نبي أن سن الرشد في المجتمع يماثل سن الرشد في الإنسان بعد أن يمر من مرحلة طفولة الأشياء إلى مرحلة الأشخاص ثم الأفكار. فرشاد اكتشاف الأفكار وإدراكها بكل استقلالية للمشكلات هو

الشرط الوحيد ليصبح العمل السياسي مترابطاً ومستمراً بدلاً من أن ينقطع ويخيب الأمل عند كل انقلاب في الحكم.

إذن لا بد أن يستجيب عملنا لمعايير تتجاوز الأشخاص.

لا بد أن نعيد لشبابنا فرح اكتشاف الفكرة حين نحررهم من محراب الشخصية، وذلك حين يتعرفون على الأفكار ذات المحتوى والمستمرة مع الأيام، أي تلك الأفكار الكبيرة في مسيرة الحضارة سواء كانت كلاسيكية أو جارية؛ وأن نحاورها طبق مقاييسنا النابعة من أصالتنا.

إن المرحلة الجديدة التي تنتظرنا بعد أن نتخلص من الديكتاتوريين الذين يمارسون على شبابنا سلطة الفراعنة؛ هو الانتقال إلى المرحلة التي تليق بمجتمع بلغ سن الرشد حين يضع جهده في خدمة الأفكار؛ فتلك مرحلة نضوج تحررنا من معيار الخارج والاعتماد الكلي على الغرب.

لقد كبرنا وبلغنا رشدنا، لكن ذلك لا يعني أن نطلق حركة تشبه ما تم في البلاد الشيوعية من أفكار اتسمت بالإرهابية؛ بل على مفكرينا العمل لكن في حدود حرية واحترام الناس والمؤسسات؛

فلكي يعود الإسلام إلى دوره فذلك جهاد الفرح وليس سبيل شقاء وآلام.

## فقه العالمية

ولدت فكرة العالموية لدى بن نبي من خلال تجربته كمستعمَر، حين بدأ يتأمل النزعة الاستعمارية عبر معاناته كواحد من الأندجين Indigene؛ فرأى في نظرة فاحصة ومن خلال متابعته لفكرة أولد شبنجلر عن دورة الحضارة أن العصر الأوروبي الاستعماري قد أوجد نوعين من الثقافة: ثقافة الإمبراطورية القائمة في الجزائر عبر الاستعمار، وثقافة الحضارة.

وفي هذا الخصوص من المفيد أن نقرأ في هذه المجموعة بكل تأمل ودقة مقال بن نبي في القسم الرابع تحت عنوان (نحو يقظة حضارة إنسانية) وقد كتبه عام ١٩٥١.

هذا المقال يلخص العالموية (البنّابية) بوضوح جلي.

فالنزعة الاستعمارية الأوروبية هي خارج النسق وتختلف عن الإمبراطوريات التاريخية المعروفة؛ إذ ابتدعت النزعة الاستعمارية سبيلاً لم يعرفه الإسكندر الكبير نفسه. إنها ثقافة ينكر المستعمر الأوروبي فيها أي دور للمغلوب؛ لأن تطلعاته تنصرف إلى الاستيلاء على ثروات البلاد المغلوبة عسكرياً؛ وهكذا يصبح المهزوم لديها مجرد شيء لا قيمة له فيما امتدادات الإسكندر الكبير في فتوحاته قد أضافت عليه من البلاد المفتوحة ما يثري مساره مما لديها من تراث وثقافة؛ وهكذا اتسع جيشه حين أصبح المغلوب جندياً في خدمة فتوحاته.

بن نبي أكمل هاتين الفكرتين عبر ملاحظاته في مقاله من خلال ملاحظاته في الصراع بين النزعة الأوروبية للاستعمار وولادة المؤسسات ذات المدى العالمي (كاتحاد البريد العالمي).

فالقابلية للاستعمار طرحت الجانب الاجتماعي من خلال نظرته للمجتمع الإسلامي بعد زوال دولة الموحدين؛ لكنه أسس من (القابلية للاستعمار) كمصطلح وضعه لتلك الفترة نقطة انطلاق لمفهوم العالموية؛ حين زاوج بين تخلف هنا في القابلية للاستعمار، وحالة حضارة هناك في الدول الاستعمارية، فوضعهما في معيار واحد يدلي بآثاره في المستوى العالمي.

لذا كان بن نبي الرجل الوحيد الذي رأى بوضوح (رغم المرض الذي أفسد حياته في ظل الاستعمار) أن عليه أن يرتفع فوق التوجع وذلة الشكوى إلى مواجهة المشكلة في خطابه نحو الآخر.

كذلك كان الرجلَ الوحيد الذي كانت لديه القدرة للخروج من زحام تلك الفوضى المخيمة في الواقع الاستعماري، وهو أشد حيوية وصفاء رؤية ليرى الرجل المستعمِر يقاسم المستعمَر مصيراً واحداً رغم المظاهر، وهكذا كان بن نبي الرجل لوحيد الذي ملك القدرة والحق في أن يعلن، ويكتشف أفقاً عالمياً بما أسس لفكرة القابلية للاستعمار من مدى يتعداها إلى لغة سلام عالمي يطوي لغة العنف المقابل في مواجهة الحالة الاستعمارية. بمعنى آخر؛ إنه الرجل الوحيد الذي وضع فكره في إطار سلام عالمي يستوعب خطيئة الاستعمار في مفهوم من التسامح في مستواه العالمي.

من هنا رسم علم الاجتماع البنّابي بامتياز الخطوط الأولى للروحانية الإسلامية، إذ بها وعبرها أوجد مصطلح العالمية في معناه الإنساني رغم أنه بنى فكرته من طين العالمية الحاضرة. فعالمية بن نبي هنا ليست من إنتاج الحضارة الإسلامية، بل هي الصيغة المركبة .Synthèse من ذلك التناغم والوفاق الذي يؤهل لتلاقٍ بين الغرب والإسلام. أي بين المستعمر والأهلي .Indigène حين يستعلي كل منهما إلى مستوى حضاري ويتجاوز الواقع الذي هو فيه. إذ من دون هذا التلاقي الذي به يستعيد به إنسانية الإنسان لا مستقبل لسلام على هذه الأرض.

## دور الإسلام في نزعة العالمية

ثلاثون عاماً مرت على مغادرة بن نبي (١٩٧٣- ٢٠٠٣) وهذه الأعوام الثلاثون التي غطت سني نهاية القرن العشرين كان بن نبي يتطلع خلالها إلى مدى قفزة تقود المسلم إلى مسرح التاريخ يلعب فيه الدور الذي كان ينتظره منه، أي دور السلام في عالمه كما في العالم.

لكن إذا طرحنا ميزان الأعوام الثلاثين التي مرت منذ وفاة بن نبي نرى أنه منذ تلك الفترة بدا المؤلفون يقدمون دراسات أولية عن الإسلام في

الغرب، لم يكن القصد منها العودة إلى الإسلام بل وضع قشور موز في طريق الانزلاق والخروج من مساره.

فالمجتمع الإسلامي اليوم ومن أجل تأطيره بقوة في العولمة، أي الاقتصاد العالمي فالضغط عليه يأتيه من كل جانب، ويزداد إحكام تقييده.

فمن الوجهة السياسية فالمجتمع الإسلامي يستريح حين يسند ظهره إلى حائط الغرب الذي يقرر له كل شيء؛ والزعماء المسلمون لا يخفون اطمئنانهم واستسلامهم له باعتبار ذلك شيئاً طبيعياً تقضي به مسيرة العصر والعولمة، ويقولون: إنه شيء طبيعي. لذا فالعولمة هي ما تقرره الدول السبع أو الثماني حين انسحب كلٌّ بلد إسلامي من القاعة ولم يعد لديه أي عنوان على طاولتها.

من هنا فإن قضية دور الإسلام تتجاوز سياسة الممكن لدى الناس، لأنها بطبيعتها تستعصي على إرادة السياسيين حين يواجهونها بوسيلتين غير مجديتين: الدبلوماسية (بما في ذلك الصراع العقائدي) والقوة العسكرية.

فدور الإسلام إذ يتجلى فإنه يتجلى في تلك المنعطفات التاريخية التي فاجأت كل المستقرئين من كافة الاتجاهات، كالثورة الفرنسية التي وضعت حداً للملكية القديمة أو كالمكتشفات «الكوبرنيكية» التي أنهت الجدل الدائر قبلها. فالحقيقة تأتي دائماً لتبدد باطل ما قبلها.

وفي هذا الإطار، لا بد من طرح سؤالين اثنين:

١) ما الذي يؤهل المسلمين لدور يؤدونه وفق ما حدده بن نبي؟

٢) وكيف يمكن لهم أن يؤدّوا هذا الدور؟

من الواضح أن القوى الكبرى تعمل دوماً ضد الإسلام، وتبحث عن سبب لعزله، إن لم يكن عن العالم كله فعلى الأقل عن مسرح اتخاذ القرار. لكن بين إرادة الشيء والتمكن من تنفيذه فرق كبير.

وهذا بدوره يجرنا إلى سؤال مزدوج من جديد:

١) هل تستطيع هذه القوى أن تحقق هدفها ضد الإسلام؟

٢) وهل يمكنها أن تؤمّن التوازن العالمي من دون الإسلام؟ وبمعنى آخر هل بإمكان هذه القوى الكبرى أن تزود العالم (من دون الإسلام) بالتسلح النفسي الضروري لبقائه على قيد الحياة؟ وبتعبير آخر أيضاً: هل من مصلحة العالم أن يتخلص من الإسلام؟ هل يفيده ذلك في شيء؟ وهل يمكن للعالم أن يتابع مسيرته من غير الإسلام؟

إن الإجابة على مختلف الأسئلة بالنفي تضيء لنا مغزى سؤالنا الأساسي:

ما الذي يؤهل المسلمين لدور يؤدّونه في هذا الإطار؟

والجواب هو إرادة المسلمين؛ لكونها سند ذلك الدور التاريخي الذي في عمق رسالته مصير العالم نفسه. وعند هذه النقطة ما يكفي لتبرير نشاط المسلمين في هذا الإطار.

لكننا سنرى أيضاً أن دور الإسلام له ما يبرره عبر الضرورة التاريخية التي تحتاج إلى مفهوم غيبي يلبي آمال الإنسانية العالمية في عصرنا الحالي.

فالعالم اليوم قد خرج من وهمين كبيرين:

- الوهم الأول الذي بات موته ظاهراً للعيان: أي الشيوعية التي لم تفلح القوة النووية الكبرى للاتحاد السوفييتي بإبقائها على قيد الحياة، مما يدل على محدودية السلطة السياسية مهما عظمت، خاصة وأن الشيوعية كانت، قبل أفولها، وطيلة قرن من الزمن، تغذي «صندوق البندور» (la boîte à pandore) للإنسانية جمعاء.

- أما الوهم الثاني فهو وهم العالم الغربي الذي، وإن كان لم يزل واقفاً على رجليه، بات يعلم أن أيامه أصبحت معدودة، وأن عليه أن يتغير إن كان تواقاً للبقاء على قيد الحياة.

فسقوط هذين النظامين فتح للإسلام من جديد فسحة من الأمل في الخلاص ومساعدة الناس.

ولكي نكون منصفين، فإن الغرب لم يرغب يوماً بتدمير الإسلام كلياً، لكنه حاول تركيب «إسلاموية» اصطناعية (islamisme artificiel) ليرفعها كتهديد ولينسج حول حقيقتها الوهم والخيال. بيد أن هذا الأمر لا يعدو كونه سيناريو عابراً، لأن الغرب يعلم علم اليقين أنه ترسخ بفضل الإسلام.

إن إرادته أن يتجاوز الإسلام الذي كان محرّك الغرب في يقظته التاريخية. إنه يريد أن يقلده ليقدّم ما هو أفضل منه، لذا فالإسلام هو معياره. فماذا يفعل إذا كان عدوه قد اختفى من الوجود؟ هنا سيرى نفسه في معاداته للإسلام أنه يقطع الغصن الذي يتكئ عليه، وسيدرك حينئذٍ أن الإسلام الذي يعاديه هو أفضل أصدقائه وملهميه بل هو سبب وجوده.

إن قرون الصراع الأيديولوجي التي جردت ضد الإسلام كما هو معلوم لم تكن في النهاية سوى معركة جردت ضد الغرب نفسه.

فالإسلام كدين هو الأكثر صحةً ونقاءً والأكثر شمولية لأنه قاوم التحريف، ليس فحسب حفاظاً على ديمومته كما تفعل سائر الديانات، بل حفاظاً على معين تسامحه الأصيل الذي سقت منه الأديان الأخرى استمرارها.

والغرب، في حقيقة الأمر، لا يجهل بأن سائر الديانات والأيديولوجيات الأخرى البديلة قد استُهلِكَت فعلاً وباتت غير قادرة على تحريك الناس لتجنيبهم الأخطاء والأخطار المميتة التي تحيق بهم.

فنحن نعلم كيف تصرفت المسيحية عندما وصلت إلى السلطة في البلاد التي احتلتها: كانت غير قادرة على الإقناع، وغير مستعدة لتطبيق عقيدة المحبة التي تتبناها، فلم تترك وراءها سوى مظاهر الأسى والإذلال واغتصاب الأراضي وقمع الناس، رغم بعض الأصوات المعترضة على هذا السلوك التي حاولت إسماع صوتها.

فماذا يمكن للغرب أن يفعل إذا ما اختار الاستمرار في غيِّه القديم؟ والجواب هو ما كان يفعله مع الشعوب التي استعمرها، بالإضافة لكل الأذى الذي طوق به نفسه في فترة ما بين الحربين العالميتين. ولكونه لا يستطيع أن يضبط شهواته القاتلة، ولأنه لا شيء يمكن أن يقاومه، فالغرب سائر بخط مستقيم نحو هاويته، وهذه المرة ستفضي الحروب إلى كوارث نووية وجرثومية لا تُبقي ولا تذَر، كما لن تدعه يصل إلى مشروع (مارشال) ثانٍ لإنقاذ نفسه من جديد.

وهنا نرى بكل أسف الإشارات المقلقة في سعي الغرب الحثيث لاحتكار حيازة الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل دون غيره، بدل أن يكون القدوة في تفكيك هذه الترسانات. تلك هي الغواية الجشعة والمشؤومة للسيطرة الإمبريالية لديه!

وعلى الرغم من القيم الجميلة التي تتمتع بها المسيحية، فإنها كمؤسسة قد فشلت على أرضها وأثبتت مدى محدوديتها، خاصة بعدما عرفت أنها لا يمكن أن تكون (روح) هذا العالم وضميره.

وكذلك الأمر، فهناك ديانات أساسية أخرى تمثل غيبيات وقورة تدعو إلى السلام، لكنها تفتقر إلى الحيوية وتبقى مقيدة بحدود لا تستطيع تجاوزها.

فبعد انهيار الشيوعية، عاد العالم إلى الوضع الذي تركه لنا الرسول ﷺ سنة ٦٢٢ ميلادية. وها هو الوقت قد حان ليقوم الإسلام بدوره، ذلك أن

حيويته التي ما زلنا نعيشها حالياً ما هي إلا الدليل بأن الإسلام لم يستنفد كافة أوراقه بعد، وأنه لم يزل يزخر بالأفكار التي يمكن أن يقترحها على العالم.

فالإسلام قد أمَّن مستقبله عبر قوة رسالته وتعاليمه، حتى إنه بات قادراً على التقدم من دون الرجوع إلى الشخصيات الإسلامية التاريخية التي قد تُظهِر نكراناً أو عجزاً أو تقصيراً. لقد أصبح بمقدور الإسلام اليوم أن ينشئ أمة عالمية جديدة متعلقة بأصوله وتعاليمه بفاعلية وصدق.

وكخاتم للرسالات السماوية، فقد حمل الإسلام فكرة (الكمال المطلق).

وهنا نطرح السؤال: كيف يستطيع المسلمون أن يقوموا بهذا الدور المطلوب؟

لا بد أولاً من حضور هذا الدور في يقظة البواعث؛ إذ الأدوار لا توزع بصورة آلية على عدد من السكان ومساحة محددة، أو تثبيتها في أي معيار. لذا فإرادة القيام بدور ما هو إعلان حضوره عبر حيويته الخاصة به وحريته في العمل وطرحه كفريق حقيقي ومحاور صلب. ذلك هو الشرط الوحيد لدور في عالمية يدخل المسلم عبرها مجدداً في مسيرة التاريخ؛ إنه دور يطرح نفسه على المسلمين بصورة غير مسبوقة.

فالمسلم منذ بداية القرن العشرين ذو ماض ضبابي لا يدرك من أين ولا كيف أتى؛ ولا يدرك إلى أين يسير، وهو بذلك واجه وضعاً فريداً في تاريخ الإنسانية.ليس لأنه لا يدرك مساره فذلك ما يقاسم به غيره، لكنه تميز ممن سواه بأنه أصيب بعامل القلة مع الزمن. فهو غير مسلح بل محكوم من القوى الأخرى التي تتداعى عليه، وقد قررت أن تعطل طريقه في أي عمل رائد على مستوى العالم.

لكن في زحمة هذه المعوقات فثمة فرصة سانحة هي فقدان المصداقية في الأنظمة الإيديولوجية الحاضرة التي تؤسس للقوى المسيطرة وبالخصوص أمريكة.

فإذا كان موت الشيوعية قد دعم النظام الإمبريالي إلا أنه كشف بموته في الوقت نفسه لشعوب العالم طابع ذلك النظام السيئ والمخيف.فالحجة التي اعتمدتها الولايات المتحدة في محاربة الشيوعية قد انقلبت عليها، وبذا فقد أوجدت عهداً جديداً لم تعد فيه الولايات المتحدة تستطيع أن تقدم نفسها للعالم عبر القوة وحدها، لقد وقعت في ضباب القوة، وذلك ما حجب عنها معرفتها بالعالم؛ لذا عجزت عن أن تقدم أي تخطيط لمرحلة جديدة من العالموية.

فأمريكة الإمبريالية لم تؤسس أي فكرة جديدة للعالم، سوى أنها قدمت أصحاب الملايين في سوق العالم، لكن العالمية ليست سوقاً، والعالم ليس معروضاً للبيع.

من هنا فالإسلام هو الذي يحمل تلك الفكرة الحيوية التي هي خارج ثقافة الإمبريالية، لأنها ثقافة الحضارة التي سكبت الوئام في مسارها فلم تُهَجِّر أو تبعد الجماعات، ولم تستذل الشعوب. فالإسلام ثقافة لا تسير وحيدة، لذا تتألف الثقافات في عالمية تلاقت فيها جميع الشعوب في إرادة ووعي.

إن قوة الإسلام الجوهرية تبرز اليوم بالتزامن مع التراجع المتصاعد للشيوعية. وهذا وحده الذي يفسر القاعدة الذهبية «الطبيعة تأبى الفراغ، ويتشارك فيها علماء الاجتماع، وعلماء السياسة مع علماء الفيزياء».

فبأي أسلوب يأخذ الإسلام المدى الذي تتركه الشيوعية خالياً، من المؤكد أنه المدى الجغرافي وليس بالتأكيد مدى القوة الجديدة للذرة. من

هنا فالإسلام يحتل محور السلام في مواجهة محور الحرب الذي تمثله قوة أمريكة التي هي أساس تماسكها الداخلي وحضورها الخارجي.

تلك هي العولمة المطروحة اليوم، وهي بقدر ما أوسعت من واقع موضوعي فإن وجودها يؤرخ لمئة عام مضى أو يزيد.فعبر بنيتها التحتية كان العالم واحداً؛ إنما عبر الإمبراطورية الاستعمارية الغربية وحدها.

من هنا فالمشكلة، يقول لنا بن نبي، هي في البنية الفوقية (إذا تحدثنا باللغة الماركسية) التي هي متهمة بتخلفها عن البنية التحتية.

بعبارة أخرى كان العالم واحداً لكن تنقصه القواعد والأسس والموافقات العالمية التي تضع على تلك البنية التحتية بنى إيديولوجية وأخلاقية سليمة قابلة للاستمرار متناغمة؛ أعني مقبولة من الأكثرية العظمى من الناس.

فالاتحاد السوفييتي ومراصده شاؤوا أن يلعبوا دور الملطف للإمبريالية الأمريكية الوارثة للإمبريالية الأوروبية، لكنه أضحى منهكاً بالحروب. لذا فالشيوعية ماتت قبل أن تعلن الانتصار النهائي على الإمبريالية باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية. وهكذا فالمعركة تنتهي حين لم يعد فيها مقاتلون.

لذا أتاح ذلك لمشعوذين كبار أن يضعوا أمام الأعين مقايسة فاسدة هي أن الشيوعية ماتت لأن الإمبريالية كانت محقة في سيطرتها. ومما يسرنا أن نقول: هذا زيف كبير. فالشيوعية ماتت بسبب مرضها الطفولي الخاص بها. فالعالم لم يكن مستعداً في كليهما أن يخضع لسلطان النقود.

فإذا كان الناس بحاجة للأفكار والبواعث لمتابعة الكفاح فمن المؤكد أنهم سوف يتجهون لقيم الإنسانية والروحية القادرة على تزويدهم بالطاقة، وهم سوف يجدون في مكنون الإسلام وفي عمقه روح القوة الكبرى والدافعة.

فأمريكة تعرف ذلك تماماً؛ لذا فهي تجيش كل أعدائها القدامى وتحولهم ضد الإسلام حين تعلنه أنه العدو الجديد. فالعدالة التي طرحت لترمم الشيوعية دفاعاً عنها لا تملك المقومات كمثال أخلاقي. فوفق منظري الماركسية فالعدالة هي تلك التي تجري في قناة الطبقة العاملة وحدها أي في تطور علاقات الإنتاج؛ وهذه الأخيرة التي انتهت إلى أن أضحت جبهة صراع ضد الإمبريالية وقوة المال وحدها. وهكذا استغلت طاقة الجماهير وعملها النشيط حين وضعته في هذا الصراع فبالنسبة إلى بن نبي فإن أي فكرة محركة لا تستطيع الحضور وإنتاج الثمرات إذا لم تكن مغروسة في الضمائر ومؤثرة في السلوك.

لقد أعطى بن نبي نموذجاً في طريقة تحريم شرب الخمر في المجتمع الإسلامي؛ وقد أشار إلى هذه الفكرة في مقال طويل حول الإسلام والديمقراطية؛ وفي هذا المقال أثبت أن الديمقراطية لا ترتكز على مجرد تأهيل الفرد ليمارس حقه في التصويت، فلقد رأينا كم هي فارغة وخادعة فكرة الديمقراطية في الولايات المتحدة حيث يتولى الرئيس السلطة عبر انتخاب شكلي يجعل منه ديكتاتوراً حقيقياً حين لا تقيد سلطته أي معايير أخرى لها صلة بالبواعث. وهكذا أضحت الديمقراطية محل نقاش حول جدواها إذ لم تعد سوى وسيلة فنية جف محتواها فأورثت ظاهرة العزوف عن السياسة في البلاد الغربية.فهناك نقاش حول مشروعية نتائجها حين نعلم أن المشاركين في التصويت هم أقل عدداً من الممتنعين عن التصويت؛ فالسلطة التي تخرج من صناديق الانتخابات لها جانبها الشكلي حين لم تعد تعبر عن التطلعات العليا للأكثرية.

إن حقيقة أي اتجاه أو مذهب هي في محتواه وفي ترابطه وقوة حجته، كما في قوة الروح التي تستوجبه، لكن السبيل إلى بروز هذا المذهب اجتماعياً يتطلب معياراً مختلفاً؛ إنه معيار الفاعلية، وهذا المعيار

يخضع لمتغيرات قوة وضعفاً لسبب بسيط هو ارتباطه بالعامل الإنساني. فالمذهب يمكن أن يكون صحيحاً وسليماً لكنه لا يحقق الغذاء الروحي المطلوب ليس لفساد فيه وإنما لأن مصيره يرتبط بفاعلية المؤمنين به. فالمجتمع السليم هو الذي تحركه العقيدة حين يضعها أمامه وتجد حضورها في الفعل كما في الفكر؛ وحين يكون المؤمنون بها في أوج قوتهم، هذا ما يسميه بن نبي (الحضارة).

فالشيوعية ماتت حين انزاحت وتخلفت كنظام عن جوهر فكرتها، وهكذا سارع الانهيار إلى المجتمع حين غدت الشيوعية وعبر القوة مجرد نظام قمعي إرهابي. لقد انهارت الشيوعية حين غابت الديمقراطية.

فبن نبي اعتبر دائماً المظهر الاجتماعي للإسلام هو الأساس، وهو يتجلى في مجرى الزمن التاريخي بقدر ما هو فاعل؛ وليس بقدر ما هو مذهب وفكر. فتفكيره انصرف دائماً إلى التحام الأصالة الصافية والفكرة العملية؛ إذ درجة هذا الالتحام هي معيار العمل التاريخي.

فالإسلام أضحى في جوهره سلاحَ الشعوب ضد احتكار العالم الذي تمارسه الولايات المتحدة وحلفاؤها، إنه الإيديولوجية الجديدة لمفهوم الليبرالية والحرية، وقد حلت محل الشيوعية التي سقطت وهي مثقلة بالجرائم ضد الإنسانية.

فسواء كان ذلك من وهم التاريخ أم حقائقه فإن معركة النضال ضد الإمبريالية أضحت عبر الإسلام، بعد أن كانت الماركسية في بدايتها هي المخولة لهذا الدور؛ لكنها ومنذ بداية القرن العشرين وليس منذ وفاة ستالين افتقدت دورها النضالي حين غدت الرأسمالية في وجهها النهائي هي العولمة. ففي المفهوم العالمي للعالمية الواقعية؛ فالإسلام لم ينظر إليه أبداً كدين لأعداء الأمس في العهد الأندلسي لابن رشد وسواه من

الفلاسفة وشعراء العصر الوسيط الأندلسي، بل هو دين السلام الذي لم يفتر يوماً عن هذا الهدف. فالإسلام هو المحرك الجديد لبروليتاريا العالم. إذ ليس مهماً أن تكون مسلماً لتشير إلى الظلم إذا لم تكافحه. ولهذا السبب فإن بن نبي عبر عن إعجابه برجال ونساء كتشي غيفارا وماو تسي تونغ وهما غير مسلمين، وخلافه الإيديولوجي معهما كبير، إذ هنا لا ينبغي الخلط بين الموت والهزيمة والكفاح من أجل عالم أكثر عدالة. فالشيوعية انهارت حين غدت محكومة بعدم الفاعلية نظراً للتطور السلبي في أداء الإنسان، وتشي غيفارا إدراكاً منه لذلك حاول أن يدخل تطوراً جديداً لدور الإنسان في الاشتراكية.

بن نبي هو أيضاً عبر عن ذلك في تفريقه بين الدور السلبي والدور الإيجابي من خلال شخصية غاندي الذي اتخذ شكلاً آخر من الكفاح عبر فكرة اللاعنف.

لذلك فإن المسلمين اليوم لا يستطيعون سوى أن يكونوا عامل اتصال وتلاحم لذلك المناخ الجوهري نحو الإنسانية والعيش المتناغم مع العدالة والمساواة. إن عليهم أن يجددوا معنى العدالة الاجتماعية. فهناك رهان كبير على المسلمين التاريخيين كي يخوضوا هذا الكفاح إنما بطاقة جديدة هي ثمرة التضامن الوثيق بين الشعوب حول هذا الفكر الاجتماعي للإسلام.

إن المفكرين الغربيين أنفسهم لا يعتريهم الوهم بقدرات الغرب من الوجهة النفسية على التسلح مجدداً بوسائله الخاصة. ذلك أن المجتمع الغربي في انحلاله قد ذهب بعيداً، ولم يستطع العودة إلى منطلقاته أو يستمد طاقته من قواه الخاصة. ومع ذلك فإن بؤس الغرب لا يصنع سعادة المسلمين، كما أن ممارسة الإسلام ليست هي التي أدت إلى انهيار المجتمع الإسلامي. ذلك أن فكر بن نبي يضع في الدرجة الثانية دور

المسلم نحو الآخر، إذ عليه أولاً أن يهتم بدوره نحو نفسه، كي لا يعمل في الفراغ أو يخدع بالشعار، وهذا يتطلب منه معرفة جيدة بقدراته النفسية في استعادة المسار التاريخي ليعود كما بدأ أول مرة إلى البكور النفسي للمسلمين وللثقافة الإسلامية.

يجب على المسلم أن يتمتع بالشجاعة ليعيد التأمل وتفحص ما مضى بصفاء النظر إلى ما تجاوزه الزمن، واطمئنان القادر على قلب الصفحة نهائياً دون احتقار الماضي أو لا مبالاة من يرميه في سلة المهملات.

فالإنسان لا يستطيع السير بعيداً وهو يجر ما خلفه، أو أن يخيم على ضميره ظل من الضباب. فشرط التخلص من القابلية للاستعمار أمر لا بد منه، وهو يأتي في المقدمة.

فالحضارات في ساعة الميلاد تحملها روح الإقدام البريئة من الأفكار المسبقة ومن كل عقده. وبن نبي في فكره يضع الإسلام في تلك المهمة العليا. إنه ذلك الإسلام الذي يولد في إطار جديد وهو منفتح على سائر المعتقدات.

فمن أجل أن تجدد العالم لا بد أن تبنيَ الإنسان من جديد.

# من تراث مالك بن نبي

تعقيباً على الدراستين اللتين قدمهما الدكتور عمر بن عيسى نقدم نصاً غير منشور وقد وجد في أوراق فيلسوفنا يعود إلى عام ١٩٥١.

إن أهمية هذا النص أنه يعرض بطريقة مبسطة عمق مشروع بن نبي الذي هو حصاد تجربته في الجزائر المستعمرة، ومنبر رؤيته التي يطل بها على تاريخ الحضارة الإسلامية، ومستقبل المجتمع الإسلامي في العصر الحديث.

ونحن نترجمه إلى العربية كما ورد:

"في العاشر من شهر يناير كانون الثاني ١٩٥١ كتب بن نبي رسالة غير منشورة في إطار حوار من ثماني صفحات، لكن دون أن يشير إلى الدراسة التي ينوي القيام بها.

هذا النص ننقله بكامله لأنه لا يختصر نظراً لطريقة عرضه في حوار.

يبدأ النص في صيغة رسالة يبدو لنا عنوانها مفاجئاً.

إلى القارئ المسلم؛ أخي كان أو عدوي[1].

---

(١) نعتقد أن هذا العنوان جاء بعد نشر كتابه (شروط النهضة)، وقد نشأ حول موضوعه جدل أشار إليه بن نبي في كتابه، فبن نبي هنا يريد أن يشير إلى أن أفكاره في هذا الإطار لا تتطلب حجة أو جدلاً، لأنها واقع مشاهد يأتي نتيجة

إنني أعرض عليك شخصياً هذا الحوار، أود أن أتكلم معك، وسأقول لك أشياء خطيرة، بل وشديدة الخطورة لكنها لم تقل لك من قبل.

في نشرة سابقة راودني شيء من الخفر لكنني الآن سأفضي إليك بأشياء محددة أتركك تستمع إليها وحدك، فلتستمع إليها بكل وضوح حتى لا يستولي على ضميرك جهل وسوء رؤية.

إن الذين سرقوا المواقف والإطلالة الاجتماعية، وها هم الآن أمام عينيك يمارسون بعض ما أعطوا من السلطة، لذا يرغبون في الحفاظ عليها والتمسك بها.

أمام هؤلاء لا بد أن تتهم ضعفك في الاستماع إليهم كي تتجنب شرك الوقوع في خداعهم لك؛ فلتبدأ إذن في طرح الأسئلة عليهم. ألا تريد طرح الأسئلة لتحاذر شرك خداعهم؟.

إذن فلنبدأ منذ الآن.. هذه البداية تنطلق من ذلك الغموض الذي يحيط بك فلا ترى الأمور جيداً. هكذا أنت تشعر بمأساتك جيداً فماذا تسميها؟ لذا فلنضع الأسئلة حتى لا نستسلم للمأساة ولتسأل نفسك:

لماذا أنا مُسْتَعمر؟ وستصغي إذن بكل بساطة لمساحة الجماهير والخطب الرنانة التي يلقيها سارقو النفوذ والإطلال الجماهيري "Les voleurs de prestige" يقودون قطيع المستمعين إلى ما يبتزونهم من

---

= تأمل ومقارنة، يخاطب قارئه بشيء من الموضوعية ينطق بها واقع الحضارة الغربية سواء كنت أيها القارىء صديق أفكاري أو عدواً لها، ولتبصر ولتستخرج النتائج بنفسك لترى سلامة وصحة ما أقدمه لك من رؤيته للنهضة. (مسقاوي)

* وقد نشرت هذا النص دراسة معالي الوزير نور الدين بو قروح التي قدمها تحت عنوان:

L'Islame sans L'Islamisme

Vie et pansee de Malek bennabé: P.158

التأييد، وهكذا تنادي معهم: ليسقط الاستعمار حين تعطي أذناً إلى صراخهم العالي والغاضب، لأنك تريد معرفة مأساتك وسببها.

هنا لا تعطي أذنك فحسب، بل انتباهك أيضاً لتفهم الأشياء. ابذل جهدك وتخيل لتتبعني في كل تفصيل تراه.

لنمر بين المدن بخطا المارد الذي يقفز بين مدينة وأخرى، ولنبدأ بمدينة فرنسيسكو، أنت هنا في مدينة هي كسائر المدن التي ستمر بها، تتوزعها ملايين من مظاهر النمط الاجتماعي، وقد انغمر فيها الإنسان سعياً متواصلاً؛ فما سر هذه الواقعة التي تراها حيث الإنسان يُحَوِّل الطبيعة وهو يَغْبر ثم وهو يتغير معها؟

ماذا تعني هذه الكلمة التغيير التي تفسر في آن واحد جهد الإنسان وعرقه؟.

ويبدو لك كلاهما الشرط الأساسي لإنتاجه وثروته وقوته. ذلك هو السر الذي أحب بداية أن أكشفه لك. فالإنسان الذي تراه أمام عينيك في هذه المدينة يعمل ثم يُبدع إنما ضمن شرط تكوينه؛ إذ يقوم بتركيب synthèse يمازج بين العناصر الثلاثة: الإنسان- التراب- الوقت.

ذلك هو السر العظيم، إنه ما تبادر لك النظر إليه من مظاهر سعيه وإنتاجه في هذه المدينة، لذا فلنتابع السير بخطا ذلك المارد الذي يمر بنا سريعاً بين المدن:

ها أنت الآن في نيويورك تجتازها إلى لندن وباريس مروراً ببروكسل ثم زيورخ خروجاً وقد يمتد بك المسار إلى بعيد؛ إلى موسكو؛ فماذا ترى؟. لاشك أن المظاهر الأساسية للبيئة قد تبدت متنوعة أمام ناظريك خلال رحلتك هذه لكي يسلكها نشاط متتابع تراه هو نفسه في كل مدينة

تتماثل أمامك في الأبنية والطرقات؛ أما المصانع والمحترفات فتتواصل نسقاً؛ أما المدارس والمختبرات فهي متشابهات لسلسلة واحدة.

لكن ذلك كله لا قيمة له من دون الإنسان كما رأيت حينما تتوافر له شروط أدائه في ذلك التركيب نفسه؛ إذ يتمازج التراب والوقت الذي تأملته في سان فرانسيسكو في بداية مسارك، ونتساءل هنا عن اسم ذلك الترابط بين الإنسان والتراب والزمن في التاريخ؛ والجواب تعرفه تماماً، لأنك حين تريد أن تسمي الأشياء تسميها بأسمائها، إنها الحضارة الغربية.

لكن فلنغير وجهتنا الآن ولنتابع سفرنا بخطا المارد، إذ يتنقل بين المدن، ولنذهب من مدينة طنجة عبر شمالي إفريقية لنحاذي ذلك الشاطئ الرملي الطرابلسي، ثم نعبر النيل وقناة السويس وبلاد الشرق الأوسط ثم البلاد الإسلامية إلى الهند كي نصل إلى جاوة فماذا سوف نرى؟

إنها المظاهر في عمقها واحدة؛ بطالة متماثلة ثم الفقر والجهل والترهل البائس نفسه، إنه المظهر الجامع لهذه المسيرة حيث يسيطر الصمت إذا شئت أن تسمي هذا المسار، فهل هناك سوى الحضارة الإسلامية في واقعها الراهن؟

لذا لا تطرح علي الأسئلة منذ الآن، بل استرسل متأملاً أفق جولتك واستخرج لنفسك نتيجة عامة.

كانت جولتنا حتى الآن في صعيد الأرض، لكن لو قمنا بجولة في الزمن فنرجع إلى الوراء ألفاً من التاريخ ولنسبح في الفضاء الإسلامي الذي امتد إلى سمرقند حيث الورشة التي يعمل فيها الفنانون والحرفيون مساراً للمدن الإسلامية، وهي تتفاعل في إطار ذلك التركيب نفسه في مسيرة الحضارة الإسلامية (الإنسان - التراب - الوقت).

كان ذلك في السنين المتوارية خلفنا؛ أي في الوقت الذي كانت فيه المدن التي مررنا بها قبل من لندن إلى موسكو تسيطر عليها حالة من الإقطاعية، الإنسان فيها عبد وقِنّ الأرض يستدعي الشفقة.

لكن إذا حاولنا أن نقوم بقفزة إلى الأمام وخَلّفْنا وراءنا حاضرنا أعني ما يشبه قفزة من حلم ألف ليلة وليلة. فلا تجادلني حول المستقبل فأنا أجهله وعليك أن تسأل الذي يعلم الغيب وقد أنزل الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

استخرج من هذه الآية الشرط التاريخي لفاعلية الإنسان، إنه لا يتعلق بالجنسية أو اللغة أو الجغرافية، فمن سان فرانسيسكو إلى موسكو ثمة لغات وأجناس مختلفة وأنظمة سياسية ومناخات مختلفة، لكن النشاط الإنساني فيه واحد، هو نتيجة ذلك التركيب بين العناصر الثلاثة: الإنسان -التراب -الوقت. هكذا أنت انتهيت من تجربة سياحتك في الأرض وفي الزمن التاريخي؛ فرأيت الإنسان مرتبطاً بمعطيات عامة هي شرط حركته؛ لذا هو لم يتغير في عمقه وهو ينتقل من إطار مؤسسي إلى آخر أو من نظام ديمقراطي إلى إماراتي لكنه يتغير من حضارة معينة إلى حضارة أخرى.

هكذا أنت درست إذن وتأملت أن مصير الإنسان يتحدد في العمق من خلال حضارته التي تنهض أو تنهار؛ هذا هو الشرط الأساسي الذي أدعوك لتستخلصه من هذه الرحلة سواء في الأرض أو في الزمن؛ أعني رحلة في التاريخ. هذه النتيجة هي رأس المال الذي يقوم على معيار ومنهج.

ذلك المعيار نضعه لنتجنب الخطأ في تقدير الأمور وكذلك المزالق التي تستدرجك.

فمن أجل أن نكشف الزيف فنميز بين الوطنية والخيانة فثمة معيار لا بد من اعتماده.

وهكذا أصبحت ترى الآن أن كل عمل لا يهدف لتفعيل ذلك التمازج التركيبي بين الإنسان والتراب والوقت هو زيف ووهم في المسيرة.

إنه المنهج الضابط للمسار الاجتماعي.

هكذا وأنت تستلهم فلسفتك الاجتماعية من خلال ما رأيت في مسيرتك هذه؛ فإن فاعلية طاقتك القصوى قد وجدت طريقها الآن لتعطي حياتك مؤشر اتجاه حاسم نحو حضارة. إذ يبقى من ذلك كله الإنسان هو الشرط الوحيد الممكن.

أنت تملك الآن المعيار ومن خلاله أردت أن أعمق لك منحى هذه الدراسة، لذا أدعوك لتفكر في مأساتك وأوهامك، لكن قضيتك ستكون خاسرة لو أنك أطلقت كلمة واحدة تشير إلى الحدود؛ لأنك حينئذٍ تضع على جوانب ناظريك ذلك الذي يوضع على فرس الرهان ليحجب عن عينيه ما حوله Des Oeillers؛ فإذا ما تكلمت عن القضية الجزائرية أو القضية اليمنية فكلاهما يحملان الألم نفسه في مسار من طنجة إلى جاكرتا. فالمسمى واحد كما هو الطاعون مسمى واحد، فهل نستطيع أن نسمي الطاعون هنا حرارة وهناك كريب، وفي مكان آخر اسماً مختلفاً؟ ففساد التشخيص في الطب في مكان ما هو فساد في مكان آخر.

إلى هنا فأنت ترى المؤشر لكنك لا ترى إلى ماذا يشير. ففي البلاد المسيحية يا أخي الصليب يشير إلى المقبرة؛ إنه يوضع إكليلاً ودلالة على المقبرة. لكن في بلاد مستعمَرة فالاستعمار هو أيضاً إكليل لكنه يشير إلى القابلية للاستعمار ألا ترى أنني لا أسمع منك أبداً الحديث عن قابليتك للاستعمار بل عن الاستعمار وحده.

فأنت لا تقول: لماذا أنا مُسْتَعمَر؟ بل تقول: إنني مُسْتَعمر. هذا يعني أنك لا تتحدث عن واجباتك، وإنما عن حقوقك فحسب. هذا موقف

عاقر لا يلد حقيقة بل ينفلت في غياب المعيار والمنهج؛ فأنت تحب الإصغاء لسارقي الإطلالة والنفوذ السياسي؛ وهم يكذبون عليك. إنهم يغشون بصرك بوهج شعاراتهم، لأنهم لا يرغبون في إنارتك وخدمة قضيتك، بل ليستخدموك وهم يمسكون ببعض ما أعطوا من سلطة ويحافظون عليها.

لا يكفي إذن أن نقلع الحشائش الضارة، إذ لا بد أن نجتث الجذر، والاستعمار ينبت من جذور القابلية للاستعمار.

فالشعب البريء من مرض القابلية للاستعمار لا يستطيع أحد أن يتمكن من أرضه، الشعب الألماني ليس مستعمراً الآن رغم احتلال الأرض الألمانية. فالاستعمار لا يستطيع أن يغرس نفوذه في ألمانية لكن هنا حيث المقبرة التي هي الاستعمار تشير على الرجل القابل للاستعمار.

الآن وإذا أنت استطعت أن تفهم ما يشير إليه الاستعمار فإنني الآن استطيع أن أكشف لك سراً آخر إنه ذلك العهد القائم بين القابلية للاستعمار والاستعمار، وقد تشابكت يداهما معاً في ساحة المهرجان؛ إذ يقف سارقو الإطلالة والنفوذ على الجماهير ليبيعوا قدرك المستقبلي monnayent. فالاستعماريون يعرفون أن اللهجة العالية والغاضبة في المهرجان ليست من الوطنية ولا من السياسة ولا كذلك الثقافة، بل هي من الخيانة والبوليتك Boulitique ثم السحر والشعوذة والضبابية، لأن ما لا يستعمل في تفاعل الإنسان والتراب والوقت لا يعدُّ شيئاً في حساب التاريخ.

لكنني أضيف بما ينير رؤيتك، لذا لا ينبغي أن أدل سمعك إلى ما ينبغي أن تصغي إليه من الأشياء، بل يجب أن تقوم هي بإسماعك فلتصغ إليها.

فأنت تستطيع أن تتصور مجموعة من المشكلات، وتراها محلولة نوعاً ما، إذ يتراءى لك أن هناك من ناحية أخرى رجلاً في العالم الإسلامي قادر على أن يقوم بمهمة التفاعل المطلوب لنهضة الحضارة الإسلامية، لذا سوف لا تجد في الإجمال غير أن تشير إلى ذلك الرجل كهدف في التاريخ.

لكنك إذا تصورت هذا فسوف أبادرك القول لقد أضعت اتجاه هذه الدراسة من أول سطر تخطه، وسوف تكون خطوتك الأولى معي خطوة زائفة. فأنا هنا لا أتكلم يا أخي على الرجل الذي أفلس وأجهض حضارة. أنا لا أتكلم على ذلك «الأهلي» Indigene القابل للاستعمار والذي هو مُسْتَعمر من طنجة إلى جاكرتا بل أتكلم على الرجل الذي يلد حضارة.

في إطار هذا الهدف الذي تداولته في هذه الدراسة أطرح قضية الإنسان وأُعَرّف فيه الثقافة القادرة على تكوينه وإبداعه.

فساحة الجماهير لا تستطيع إنتاج هذا التكوين الثقافي، أعني تلك الساحة الجماهيرية حيث يتشدق سارقو الإطلالة الاجتماعية، أولئك العاملون المزيفون الذين لا ينتجون سوى مثقفين مزيفين.

ففي الواقع ماذا يقولون؟ ماذا يقول ذلك الذي أراه يرتب عمامته ويراقب هندامه وهو يقف وسط الجماهير؟ هذا الوهم الذي برز من الزمن الماضي يعود بنا إلى هارون الرشيد. يلقى كحجة دامغة جُملاً منتقاة لابن النديم ومقامات الحريري والأشعار اللاهبة للمتنبي وأنت تستمع إليه وتصغي بكل إعجاب؛ إذ تستطيب سماعه وتهز رأسك مستطيباً كلام ذلك الواعظ بالذكريات؛ إنه يتحدث عن الماضي البعيد بنبرة تبسط لك وجه تلك الأيام العظيمة، وأنت تسلم بكل اهتمام، مستطيباً كلام ذلك الماضي البعيد؛ ثم لاعتبارات انتخابية يلتفت الخطيب معجباً ليصلح ربطة عنقه.

إنه واعظ ما تقتضيه الأحوال والأفكار الجديدة: إنه يريد أن يقنعك في كل حال فيشير إلى فيكتور هوغو وفولتير وتهز رأسك مستمعاً على الدوام، لكنني أرى في عمقك شيئاً من عدم التركيز، فأحياناً تحلم وأنت تستمع إليه، وأحياناً تسرح في قصة ألف ليلة وليلة، أو تفكر في موديل سيارة لها ذلك المقعد الوثير.

هكذا أنت تحلم ولا بد أن تحلم؛ لكن في الحضارة؛ وليس في متحف للذكريات القديمة أو في سوق للأشياء المستحدثة.

فالحضارة دراسة ومصنع ومختبر، ثم الإنسان المعد لمهمته ليقوم بما وسعه في إيجاد شرارة الإقلاع حين يتمازج مع التراب الذي يمثل إمكانيات البيئة والزمن.

والحضارة من ناحية أخرى هي المعبد أيضاً إذا ما أراد الإنسان أن يسأل الله أن يلهمه عبقريته ويدفعه نحو العطاء.

إنه معبد يتهيب الجهل بالشيء في رحابه بكل خشوع ورصانة ليكون جهله دائماً نقطة استفهام تبحث عن الجواب.

وهو المعبد الذي يطرد من ساحته جهالة تنتشر ثرثرتها في فجور هتافها.

## مستخلص

يقدم المؤلف في هذا الكتاب مالك بن نبي - وهو أحد تلامذته - مفكراً وعالم اجتماع استطاع الوصول عميقاً إلى فهم الحالة الاجتماعية والحضارية الإسلامية الحالية، فعرف مواطن ضعفها وسبل النهوض بها، والخروج من القابلية للاستعمار.

في البحث الأول من الكتاب الذي يتألف من بحثين يوضح المؤلف منــزلة بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي، ويقارن تجربته بتجربة الأمير عبد القادر الجزائري، ويحاول من خلالها أن يقدم رؤية بن نبي الذي يؤمن بأن النشاط الفكري هو إنتاج المجتمع المتحضر؛ الذي ينتج الأفكار كما ينتج الأشياء والأدوات اللازمة لمسيرته التاريخية.

وما أنتجه المجتمع المسلم من نشاط فكري في العصر الإسلامي الأول، إنما كان بسبب حمله لروح التغيير الكامنة في النفسية العربية حين نزول الوحي؛ فقد خاطبت الرسالة روح المؤمن، لذلك تولد التركيب الهائل للعناصر المكونة لأي حضارة وهي الإنسان - والتراب - والوقت. وعبر العوامل هذه يكون العامل الإنسان هو الأكثر تصميماً للتوجه نحو الهدف.

وبحسب مالك بن نبي فإن الإنسان وحده يمنع سقوط المجتمع إذا ما وصل إلى درجة معينة وهو الذي يساهم في الثقافة، وهذه تتجلى في أربعة مظاهر: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والتقنية. وهنا تدخل العلوم في المرتبة الرابعة إذ لن تكون لها فاعلية في حال غياب ارتباطها بالعناصر الأخرى.

والفكرة هي مبدأ الحركة والحياة اللتين تميزانها عن الوثن الذي هو رمز الخمول والموت، وهي كالروح التي تنسج التناغم والفاعلية والتماسك في مسيرة الحياة.

في البحث الثاني يتحدث المؤلف عن مستقبل المجتمع الإسلامي؛ وفي مقارنة بين مالك بن نبي ومحيي الدين بن عربي لاحظ المؤلف أن بن نبي يرجع الشكل المتردي للمفهوم الغيبي الإسلامي لكونه فاقداً لأي فاعلية اجتماعية، وقد انتقدها في مجمل ما انتقد من مجالات مختلفة في المجتمع الإسلامي. ويرى أن العمل في الفاعلية الاجتماعية لا بد أن يتحرك ضمن معطيات الحقيقة المتعالية، خروج فاعلية الطاقة عن مجراها يعني الخروج من الحضارة، وهذا ما يقصده بـــ (مسلمي ما بعد الموحدين) الذين أصيبوا بتراجع في قوة الإنتاج، كما أصيبوا بتحلل الشخصية في الجانب الروحي. لذا فلاستعادة دورهم الحضاري عليهم استعادة الثقة والشجاعة ليوظفوا فعل الخير كطاقة حركة في مسيرة الحضارة.

إن المسلمين اليوم لن يكونوا سوى عامل اتصال وتلاحم لذلك المناخ الجوهري الدافع نحو الإنسانية والعيش المتناغم مع العدالة والمساواة.

**Abstract**

In his book, the writer introduces his teacher, Malik Bin Nabi, as an intellectual and a sociologist who could go so deep for understanding the current Islamic social and civilizational status, for he kew the points of weakness in it, the means of reviving it and releasing it from colonialism acceptability.

In his first research, the writer clarifies Bin Nabi's rank in the Islamic history and compares him with Prince 'Abdul Qader al-Jaza'iri, and so attempts to introduce a view springing from his belief that the intellectual activity is the production of the civilized society which produces ideas the same as it produces things for its historical march.

It was the spirit of change implicit in the Arab soul - when the Revelation was being sent down - which lay behind the production of the early Muslim society, because the Message addressed the believer's spirit. As a result, the tremendous structure of the elements which constitute any civilization represented in the human, soil and time has been created, while the human factor is the one most determined for realizing the aim.

According to Bin Nabi, only the human is able to prevent the collapse of the society when it reaches a certain degree of science that contributes to culture which is manifested in four phenomena: morals, beauty, the practical logic and technology, where sciences rank fourth. This is because it will be invalid in case it lacks correlation with the other elements. The idea is the discipline of movement and life, which distinguishes it from the idol which symbolizes idleness and death. It is like the spirit which weaves harmony, efficiency and coherence in the march of life.

In the second research, the writer talks about the future of the Muslim society, and while laying comparison between Malik Bin Nabi and Muhyiddin Ibn 'Arabi, the writer recognizes the retarded formulation of the Islamic metaphysical (unseen) concept, because it lacks social efficiency which he criticizes among other points of criticism in the Muslim society. He also sees that the work in the social efficiency must move within the components of the supreme reality and when power efficiency goes out of its course, which indicates its going out of civilization. This is the idea intended by *"Post Monotheist Muslims"* who suffered form reduction in production and character disengagement of the spiritual side. Therefore, if they want to restore their civilizational role, they have to restore trust and courage to revive the function of doing good as a dynamic power in the march of civilization.

Today, Muslims are more than a factor of communication and unity for that essential climate which stimulates the feeling of humanity and life harmonized with justice and equality.